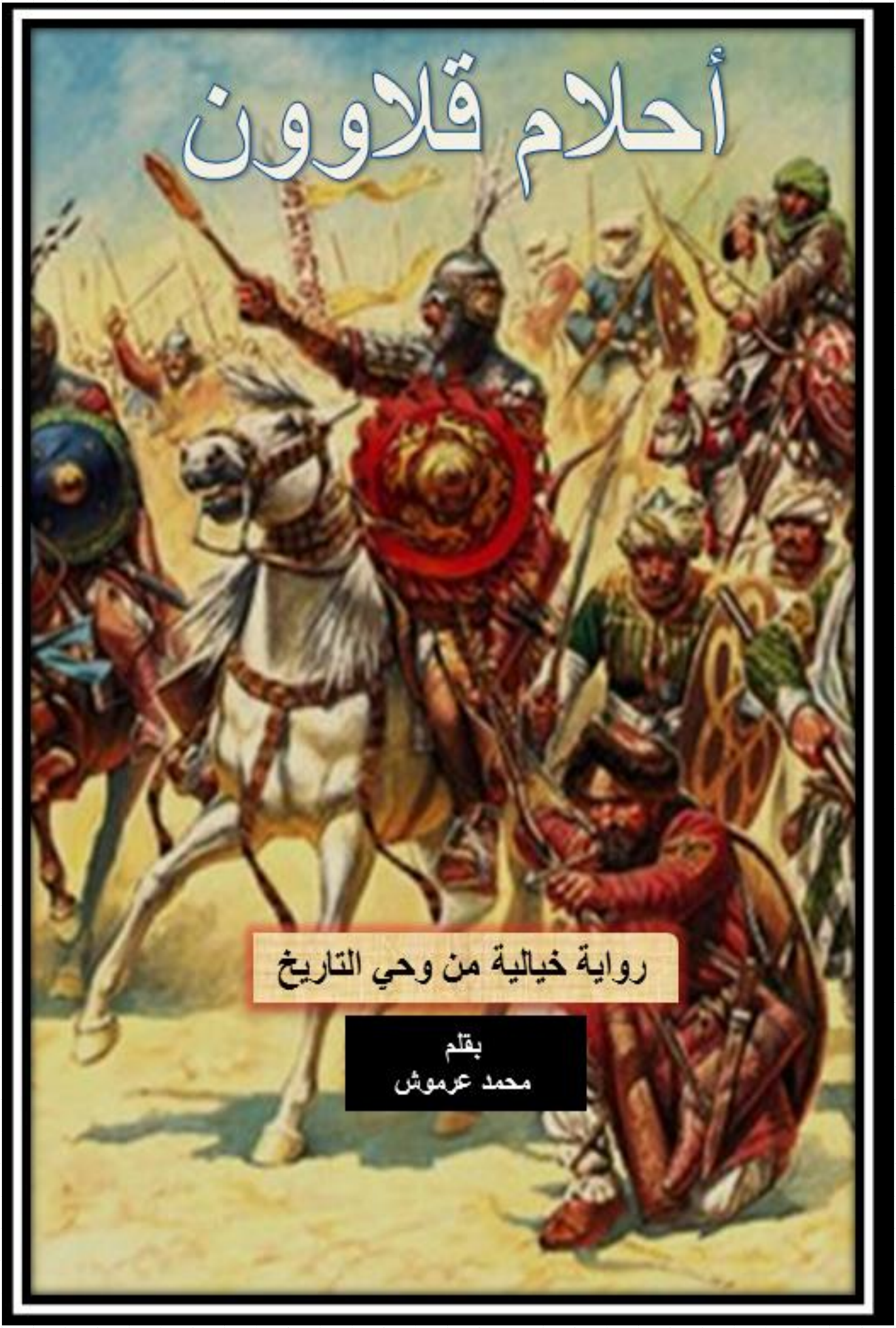

# أحلام قلاوون



رواية خيالية من وحي التاريخ

بقلم
محمد عرموش

# أحلام قلاورون

**رواية خيالية من وحي التاريخ**

**بقلم**

**محمد عرموش**

## السلطان يحاول أن ينام

في إحدي ليالي شتاء سنة 1280م بقلعة الجبل مقر الحكم في مصر المحروسة كان السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الألفي يحاول أن يخلد إلي النوم ولكنه لم يتمكن من ذلك ، ربما لكثرة الأفكار والهموم والخواطر وتزاحمت في رأسه الذكريات بشكل عجيب ،

إنه يحاول أن يتجاهل كل هذا ولا يستطيع ، فهو يتذكر حتي أدق تفاصيل الأحداث التي مر بها ، فقصة حياة بعض البشر هي مرحلة من تاريخ الوطن الذي يعيشون فيه

فقد شارك قلاوون في أهم بل جميع الوقائع بل إن شئت فقل الملاحم والبطولات والأمجاد والنوازل والأحداث الجسام التي مر بها وطنه ، ووطنه كوطن غيره من المماليك هو مصر فهو لا يعرف غيره ولا ينتمي لسواه منذ نعومة أظفاره

واستعرض قلاوون جميع ذكرياته منذ أن كان يحرك جسمه للأمام والخلف مع باقي الصبيان مردداً آيات القرآن أثناء تلقي دروس حفظ القرآن مع أقرانه من المماليك البحرية بجزيرة الروضة ، ما أجمل صوت الشيخ فكأنه يتردد في سمعه حتي الآن رقيقاً حالماً يملؤه الخشوع والسكينة ، لقد كانت دروس القرآن والحديث وتعلم القراءة والكتابة من أحب الدروس إلي نفسه بل ونفوس أقرانه جميعاً ، فقد كان الشيخ حليماً حنوناً يحتوي الجميع بعطفه وكأنه أم لهم حيث قد فقد الجميع معني الأمومة بل فقدوا معني جميع الصلات العائلية منذ أن تم بيعهم في أسواق الرقيق كمماليك ، وبيع هو بألف دينار كاملة عندما اشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر بألف دينار، فعُرف قلاوون بالألفي ،

## قدوتان في حياة كل مملوك

كان الشيخ يرفق بهم علي عكس المعلم الذي يدربهم علي القتال ، كم كان قاسياً ، حازماً ، يعاقب من يخالف القواعد عقاباً شديداً ، وكان قلاوون يشعر دائماً بالتعب والإرهاق الشديد أثناء دروس القتال ، ولكن أين المفر من برنامج إعداد المماليك الذي أقره الملك الصالح

فالمماليك البحرية وهم النوع الأول من المماليك في مصر من ناحية الترتيب التاريخي ، كان لهم برنامج إعداد خاص ، كما أنهم كانوا يُجلبون صغاراً لا يعرفون شئ عن العلاقات الاجتماعية الطبيعية فلا يوجد أب يعطف ويرعي ويوجه ولا أم حنون ترحم وتربي ولا أشقاء أو عائلة من أي نوع ،

وكذلك ليس لهم وطن سوي مصر فهم لا يعرفون غيره وانقطعت كل صلاتهم بجذورهم وأوطانهم وعائلاتهم ، فهم مثل عجينة طرية ساذجة يمكن وضعها في أي قالب وتشكيلها علي الوجه الذي تريده ،

أو الذي يريده الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي كان السبب في إحضارهم إلي مصر وبني لهم قلعة بجزيرة الروضة وقام بتخصيص من يعلمهم ويؤدبهم ويدربهم ليكونوا قوة يستعين بها علي قتال الأعداء وما أكثرهم ، وتخيل معي أن تمتلك جيشاً خاصاً بك تشكله كما تشاء وتوجهه إينما تريد

ولكن لماذا فكر الملك الصالح في هذا الحل ؟

وما هي المشكلة أساساً التي تحتاج إلي حل ؟

لقد كان هذا الملك من ملوك الدولة الأيوبية في مصر وهذه الدولة تحديداً كان قدرها منذ اللحظة الأولي هو مواجهة الصليبيين منذ عهد مؤسسها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي وحتي نهايتها فكانت تصد الحملات الصليبية التي لم تتوقف خلال العصر الأيوبي بالكامل فلم تكد تنتهي حملة حتي تبدأ حملة أخري جديدة أشد شراسة من سابقتها

## الطريق إلي بيت المقدس يبدأ من القاهرة

وكأن هذه الدولة تواجدت في تلك الفترة من التاريخ لمواجهة الحملات الصليبية ، حتي أن الحملة الصليبية السابعة التي كانت فرنسية خالصة وبقيادة ملك فرنسا آنذاك الملك لويس التاسع استهدفت دمياط ولم تتوجه إلي بيت المقدس الذي هو أسمي أهدافها ، فلقد أيقنوا أن الطريق إلي بيت المقدس يبدأ من القاهرة ،

فسقوط الدولة الأيوبية هو السبيل الوحيد لاحتلال بيت المقدس ، وكان الملك الصالح يعي ذلك جيداً وأدرك طبيعة وحجم المشكلة واحتاج لحل لها ،

وكان الملك الصالح قد أعد برنامج خاص ومميز للمماليك منذ صغرهم ،

فهو لا يريد مجرد مقاتلين عاديين فهناك المرتزقة الذين يقاتلون لمن يدفع لهم الأموال ، ولكنه يريد مجاهدين ولكي يحقق ذلك قرر تربيتهم علي الجهاد في سبيل الله وغرز قيم الإسلام في نفوسهم ، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالي ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار

فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وعندما ينتهي المملوك من تدريبه ويثبت جدارته ويصير محارباً كفئاً يُنقل إلي خدمة السلطان ويتدرج في الرتب حتي يصير من الأمراء ،

وهكذا قرر الملك الصالح أن يتعلم مماليكه تعاليم الدين وفنون القتال معاً، فأصبح للمماليك معلمان أو مربيان لكل طائفة منهم أو الأدق أن نقول قدوتان أحدهما دينية والأخري عسكرية

**لقد كان قلاوون إذن أحد هؤلاء**

**والآن هو سلطان مصر ، فهل كان يتخيل أنه سيجلس يوماً علي عرش مصر ، عرش الملك الصالح نفسه ، لقد كان الصالح بالنسبة للمماليك رجل مهيب عظيم يجبرك علي أن تحبه وتتعلق به وتهابه في نفس الوقت ، يا له من ملك صالح ورجل صالح جليل ،**

**لقد كان يمثل للمماليك البحرية الكثير فهو المجاهد الكبير والأب والقدوة ، وكم تعلموا منه الإقدام والشجاعة ، فمجرد رؤيته في كل مرة تراه فيها حتي ولو من بعيد تتعلم منه درساً جديداً ويتملكك شعور بالفخر والزهو لأنك أحد رجاله ،**

**فانظر إليه وتأمله وهو يمتطي جواده أو يشهر سيفه ويتقدم الصفوف في شجاعة وثقة نادرة ، وكأن أمير الشعراء كان يقصده بقوله :**

**ورُبَّ مجاهدٍ شيخٍ مُبَجَّل**

**ترجَّلتِ الجبالُ وما ترجَّلْ**

**أراد ليركب الموتَ المحجَّل**

**إلى أجدادِه المستشهَدينا**

**ولكن قبل أن نسترسل في الحديث عن قلاوون الألفي وأحلامه والملك الصالح ومماليكه وكي تعيش معي في أجواء العصر المملكي وتشعر بأحاسيسه كلها**

**فلتسأل نفسك أولاً : ما هو أول شئ يجول بخاطرك عندما تستمع إلي كلمة (المماليك) ؟**

**وما هو انطباعك عنهم ؟ وهل هذه الكلمة من الكلمات سيئة السمعة بالنسبة لك ؟**

**قد تُذَكِّرُه البعض هذه الكلمة بالصراعات علي السلطة ،**

**والبعض تذكره هذه الكلمة بالعنف والتآمر**

**وقد يتذكر البعض أيضاً الانتصارات والأمجاد والحروب الشرسة وآخرون سيتذكرون الآثار الرائعة والعمارة الضخمة الفخمة وهناك من سيتخيل ذلك العصر كما قرأ عنه**

**دولة قوية مرهوبة الجانب تنعم بازدهار اقتصادي وحضاري وعلمي**

**لاشك أن كل هؤلاء علي حق بشكل أو بآخر ، فعصر المماليك عصر ثري جداً بالأحداث بل هو مزدحم بالملاحم والبطولات والمآسي أيضاً ، ولكن عن أي نوع من المماليك نتحدث ؟**

**البحرية أم البرجية أم العثمانية ؟**

**فليس من الإنصاف أن نضعهم جميعاً في سلة واحدة ،**

**يقول المتنبي عن أخت سيف الدولة**

**وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها  فإن في الخمر معني ليس في العنب**

نعم بكل تأكيد إن الخمر تختلف كل الاختلاف عن العنب بالرغم من أنه مصدرها وكذلك المماليك منهم من كالخمر الجيدة ومنهم من كالخمر الرديئة ولكنهم جميعاً من العنب فحاول أن تتخيل معي هذا المعني ، ولكن لماذا أو كيف حدث هذا الاختلاف ؟

ولكن قبل توضيح الاختلاف بين أنواع المماليك تجدر الإشارة إلي أن المماليك عموماً ليسوا بدعة ايوبية ابتدعها الملك الصالح نجم الدين ايوب فقد تم الاستعانة بهم قبل ذلك أيام العباسيين والطولونيين بل والفاطميين أيضاً ولكننا معنيين بدولة سلاطين المماليك في مصر وقد ارتبطت بداية هذه الدولة بالمماليك البحرية الذين أعدهم الملك الصالح للقتال ، وبطل قصتنا من هؤلاء

ولكن لماذا احتاج الملك الصالح لتأسيس جيش من المماليك ؟

ألم يكن الجهاد حلاً مناسباً ؟ ، أقصد أن يعلن الجهاد لتعبئة الجيوش وحشدها لقتال أعداء الأمة كما كان يحدث في العصور الأولي للإسلام ، أم أن روح الجهاد قد ضعفت أو أن الاعتماد عليها وحدها لن يكون مضموناً والعدو علي الأبواب ولابد من امتلاك قوة تحت يده في أي وقت بكل ما تحمله كلمة امتلاك من معاني ، قوة لها عقول لا تعي سوي ما تفهمه منك وحدك ولها قلوب تحب ما تريده أنت أن تحبه ، فالمماليك هم عبيد مدربون علي القتال وليسوا عبيداً للخدمة ،

فمن النادر أن تجد مملوكاً يعيش إلي ما بعد الأربعين فالقتال هو الحرفة الوحيدة التي يجيدونها ، وطاعة السلطان والانتماء للأمة والولاء لها أهم ما يعرفون في الحياة

، وهكذا أصبح لهم ولاء جديد بل قل ولاء وحيد فالمملوك ليس له قديم ليستبدله بجديد ،

وإذاعدنا إلي القلعة وتابعنا بطلنا المنصور قلاوون الألفي مرة أخري ومحاولاته اليائسة كي ينام سنجده سيتذكر الكثير مما مر به في حياته

## قلاوون يري الملك الصالح في المنام

وظل قلاوون يسبح في بحر الذكريات والخواطر وهو بين اليقظة والنوم وإذا به يسمع صوت أقدام ويري شبح مقاتل في كامل عدة الحرب يقترب منه وسط الظلام وتعجب كيف يحدث هذا ومن يجرؤ علي اقتحام هذا المكان بهذا الشكل وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل ،

فنظر فوجد الملك الصالح أمامه ، يناديه ويقول :

- هل أنت الألفي ؟
- أجل يا مولاي
- لا تخف يا بني فليس هناك ما يدعو لذلك ، لقد أبليت بلاءاً حسناً في معركة المنصورة

- بفضل الله ثم بفضل قيادتكم الحكيمة يا سيدي وكيف أخاف وأنا في حضرة سيدي ومولاي ؟!!
- لقد جئت لأجعلك تشعر بالاطمئنان والسكينة والتفاؤل ولأبشرك بالنصر بإذن الله في حمص
- حمص ؟ !!
- نعم حمص ، بل وبعدها ستصبح رابع أربعة إن شاء الله
- أنا لا أفهم شيئاً يا مولاي
- ستفهم يوماً ما فقط ثق في نصر الله وتذكر دائماً أن النصر من عند الله سبحانه وتعالي

أفاق قلاوون فجأة وعرف أنه كان يحلم ، فهي رؤيا بالتأكيد ،

يا لها من روعة أن تتاح له فرصة للحديث مع الصالح العظيم ولكنه لم يشبع منه وكذلك لم يفهم ما يعنيه ، علي أي حال لقد شعر قلاوون بسعادة غامرة لرؤية أستاذه والحديث معه ، كم كان يتمني أن يسأله أسئلة كثيرة تعينه علي ما هو فيه ،

ولكن لا بأس فقد يزوره مرة أخري ، فقد سمع من قبل أن الشخص الذي تفكر فيه كثيراً قد يزورك في منامك ، وها هو قد زاره بل وأثني علي جهوده في معركة المنصورة ، إنها لم تكن معركة بل ملحمة بطولية كبري ، حصد فيها الصالح ما زرعه في جزيرة الروضة وشاهد رجاله من البحرية يثبتون صحة تجربته المثيرة ، تجربة تربية الرجال الأشداء الذين يحلمون بالجهاد في سبيل الله منذ صغرهم ، والذين لا يعرفون مهنة أخري غير القتال ولا يجيدون سواه ،

## ذكريات معركة المنصورة

وها هو قلاوون يعيد تذكر ما حدث عندما جاءت الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا والتي اتجهت إلي دمياط ، واستولت عليها بطريقة ليس لتفوقهم دخل فيها ، فقد كان السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب مريض مرضاً شديداً

فعندما وصلت السفن الفرنسية إلي دمياط أرسل الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلي السلطان ، وتعددت رسائله دون أن يتلقى رداً فأدرك أن السلطان قد مات ، فانتظر حتي وافي الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطئ الغربي إلي دمياط ثم تركها وسار جنوباً –

يا له من تصرف أحمق

ونظر أهالي دمياط فوجدوا الجيش الذي أتي لحمايتهم قد غادر المدينة فخافوا علي أرواحهم وخرجوا في الليل تاركين مدينتهم ، لن ينسي قلاوون وباقي المماليك البحرية لفخر الدين ما فعله أبداً ، إنه موقف مخيب للآمال ،

أما الملك لويس فعندما أصبح وجد المدينة خالية من الجند ومن الأهالي فظن أنها مكيدة وقام بإرسال من يستكشف الموقف فتأكد من خلو المدينة بالفعل

يا له من سعيد الحظ ، ولكن كيف يتم ترك المدينة والانسحاب بالجيش لمجرد الاعتقاد بوفاة الملك ، لقد كان مخطئاً بلا شك ، ولكن بشكل عام هذا مثال علي أهمية الحاكم في مصر ، كما سقطت مصر من قبل في أيدي الفاطميين لمجرد وفاة حاكمها آنذاك أبو المسك كافور الإخشيدي ، سبحان الله

ودخل الجيش الفرنسي دمياط بلا مقاومة وبلا أدني مشقة أو عناء نتيجة لقرار خطأ اتخذه الأمير فخر الدين والطريف أن لويس التاسع ورجاله وجدوا المدينة عامرة بالأقوات والذخائر بالتأكيد فالمدينة بالطبع كانت تستعد لحصار طويل فاستولي لويس علي كل ذلك وفرح به ، ومكث بالمدينة ستة شهور كاملة ، فكان تأثير خبر وفاة الملك في هذه الفترة في منتهي الخطورة حتى لو كان خبر غير صحيح ،

ورغم مرضه الشديد وحزنه علي انسحاب حامية دمياط إلا أن الملك الصالح استطاع أن يحشد الجيش بالمنصورة واتخذها قاعدة لقتال الفرنسيين وقام بتحصينها واستعد للمعركة الكبرى معهم ، كما أن المجاهدين قاموا بأعمال إغارة علي معسكر الفرنسيين بدمياط والعودة في كل يوم بعدد من الأسري ،

وفي وسط كل هذه الأحداث مات الملك الصالح في ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة 647 هـ " 22 نوفمبر سنة 1249 م " في أدق مراحل القتال ضد الصليبيين الفرنسيين ،

وكانت شجرة الدر زوجة الملك الصالح سيدة قوية وحازمة وشعرت بأن هذا الخبر قد يؤدي إلي ضعف معنويات الجيش وقد يحدث ما حدث في دمياط عندما كانت مجرد شائعات عن وفاة الملك فما بالك بخبر مؤكد يصل إلي الجيش فقررت مع كبار الأمراء إخفاء خبر وفاته ، وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلي حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلي نفس الغرفة وتخرج ممهورة بإمضاء الملك وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه وأرسلت الرسل إلي الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح في حصن كيفا ليحضر فيتولي السلطنة ويدير الأمور ، فالبلاد في حاجة إلي سلطان

يا لها من إمرأة تتسم بالحكمة وحسن التصرف

واحتدم القتال وبرغم كل هذه الإجراءات تسرب نبأ وفاة السلطان إلي الأعداء ، ثم بوصول الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح تولي قيادة المعركة فقام بقطع الإمدادات بين معسكر الصليبيين المواجه للمنصورة وبين مدينة دمياط التي تأتيهم الإمدادات منها حتى ضاق الحال

بلويس التاسع ، فشعر بأن حملته ستفشل قبل أن تحقق أهدافها فأرسل إلي تورانشاه رسولاً يطلب منه أن يسلمه بيت المقدس مقابل الانسحاب من مصر فرفض تورانشاه ،
واشتعل لهيب المعركة وانقض جيش المسلمين علي الأعداء وقتلوا وأسروا أعداداً ضخمة منهم ، ووقع في الأسر الملك لويس التاسع نفسه الذي تم حبسه في دار القاضي ابن لقمان بالمنصورة وكان الموكل بحراسته شخص اسمه الطواشي صبيح ،
فكان نصراً عظيماً بفضل الله سبحانه وتعالي ، ثم بعد ذلك تم فداء الملك لويس بمبلغ كبير من المال وتم انسحاب الفرنجة من مصر دون قيد أو شرط بعد أن بقي العديد منهم في المنصورة واعتنقوا الإسلام ،
وتذكر قلاوون ما كتبه الشاعر جمال الدين بن مطروح مودعاً ومهدداً ملك فرنسا وجنوده حيث أشار إلي أن دار ابن لقمان وأنها ستظل موجودة وبها الطواشي صبيح إذا فكر الملك في العودة مرة أخري فقال :

قل للفرنسيس إذا جئته – – – مقال نصح عن قؤول فصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها – – – تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلي أدهم – – – ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم – – – بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يري منهم – – – إلا قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمروا عودة – – – لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان علي حالها – – – والقيد باق والطواشي صبيح

## توران شاه يختلف عن أبيه

وكان الملك الصالح يعتمد بالكامل علي المماليك في هذه المعركة الذين أكثر من شرائهم ليستعين بهم علي حروبه أي أن المعركة كانت بين المماليك والجيش الفرنسي .
ولكن المماليك بقيادة أيوبية وكان الملك الصالح يعامل المماليك معاملة خاصة لاسيما الأمراء منهم والقادة ولكن ابنه الملك المعظم توران شاه كان يتعامل مع مماليك أبيه بأسلوب غير لائق ولا يعطي قادتهم القدر الكافي من الاحترام وخاصة بعد ما حققوه من نصر علي الحملة الصليبية السابعة مما أدي إلي شعورهم بأن هذا الملك سوف يتخلص منهم في أي لحظة فقرروا التخلص منه قبل أن يتخلص منهم
فلم يكن المعظم توران شاه كأبيه ثباتاً واتزاناً وحكمة بل كان شاباً أهوج فلم يقدر لزوجة أبيه شجرة الدر تدبيرها ولا للمماليك البحرية جهدهم

وشتان بين الابن وأبيه ، لقد كان الملك الصالح بالنسبة للمماليك أستاذهم ومعلمهم وقدوتهم وسيدهم وحبيبهم ، وقل ما شئت عن علاقته بهم ، وخاصة مع كبار الأمراء والقادة الذين نالوا شرف القيادة والإمارة علي يديه فجعل منهم أمراء وقدمهم علي آلاف المقاتلين وكان يعاملهم معاملة تليق به وبهم وكانوا يدينون له بالولاء حتي بعد أن أصبحوا ملوكاً كان لقب كل منهم ينتهي بكلمة الصالحي النجمي أي أنه ينسب نفسه للملك الصالح وتذكر قلاوون لقب صديقه الأمير بيبرس الذي تولي الحكم قبله فكان يُدعي السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي

هكذا كان الملك الصالح نجم الدين أيوب رمزاً كبيراً قد تؤدي إشاعة خبر وفاته إلي انهيار معنويات مماليكه ،

وأشاع ضعفاء النفوس إشاعة خطيرة ومدمرة أن توران شاه سوف يتخلص من القادة جميعاً وأنه يحتقرهم وسيقتلهم جميعاً ،

فكان قرارهم هو التخلص منه فتم قتله شر قتلة طعناً وحرقاً وغرقاً ، وأياً ما كان قد قيل عن أنه سيقتل قادة المماليك البحرية ويتخلص منهم حقيقة أم من خيال ضعاف النفوس فلا شك أن معاملته السيئة كانت دليلاً ساعد أو ساهم في تأكيد هذه الإشاعات ،

وتذكر قلاوون مشهد جثة توران شاه البشعة واندهش وتعجب كيف لم يُشر الملك الصالح إلي هذا الحدث الشنيع عندما زاره في المنام ، فهل كان غير راضي عن تصرفات ابنه ، الله أعلم ، فلا يملك قلاوون سوي الدعاء لهم بالرحمة ولجميع موتي المسلمين

## المماليك وشرعية الحكم

ثم تذكّر قلاوون أيضاً الحيرة الشديدة التي وقعوا فيها جميعاً بعد مقتل توران شاه ،

إذ لم يجرؤ أحد من أمراء المماليك علي أن يعلن نفسه سلطاناً نظراً لأن شرعية الحكم في ذلك الوقت كانت لسلاطين بني أيوب

وشرعية الحكم لابد أن تأتي من الخليفة العباسي في بغداد في ذلك الوقت ، فلا يمكن آنذاك أن يتولي أي شخص مقاليد السلطة في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي إلا بتقليد من الخليفة شخصياً وحتي وإن كان هذا إجراء رمزي إلا أنه ضروري لإضفاء الشرعية ، وحاجة المماليك تحديداً إلي هذه الشرعية تفوق حاجة غيرهم لأنهم يعرفون جيداً أنهم عبيد منذ البداية ولا تصح لهم ولاية ،

لذلك قرروا بشكل مبدئي أن تبقي السلطة في الأسرة الأيوبية مؤقتاً لحين حل هذه المعضلة ، فاتفقوا علي أن تتولي شجرة الدر زوجة الملك الصالح مقاليد السلطة إلي أن أرسل لهم

الخليفة العباسي خطاباً يُنكر عليهم فيه تولية إمرأة الحكم فكان هذا اعتراف ضمني من الخليفة بانتقال السلطة لأحد أمراء المماليك

فقد كان التقليد المتبع في عهد الأيوبيين أن السلطان لا تصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف به الخليفة العباسي وأرسل إليه التقليد بذلك ولذلك أسرع أمراء المماليك فولوا أحدهم – وهو الأمير عز الدين أيبك – السلطنة ولُقِّب بالملك المعز وتزوج من شجرة الدر التي خلعت نفسها من السلطنة بعد أن تولتها ثمانين يوماً ،

وحتى لا تغضب الأسرة الأيوبية بالشام قرر المماليك أن يشارك الملك عز الدين أيبك طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسي حفيد الملك الكامل محمد وكان عمره حوالي ست سنوات ، ولكن الأيوبيين في الشام لم يقبلوا بهذا الوضع ودارت معارك شرسة بينهم وبين المماليك انتهت بانتصار المماليك ونتيجة لهذه المعارك قام المماليك بخلع الملك الطفل من السلطنة ، وبهذا تم الاستقلال المملوكي التام بمصر ،

## دور الخليفة في الصلح بين المماليك وبقايا الأيوبيين

وأحس الخليفة العباسي في بغداد المستعصم بالله أن الأمور ستتحول إلي قتال بين المسلمين بينما الخطر المغولي علي الأبواب فقام بحسم الخلاف بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر وأرسل رسولاً إلي كل منهم كمبعوث للسلام

ونجح رسول الخليفة في مهمته وتقررت قواعد الصلح بين الطرفين علي أن تكون مصر والجزء الجنوبي من فلسطين بما فيه غزة والقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك ،

وأن تكون الأجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة لأصحابها من البيت الأيوبي وأن يطلق المعز سراح من وقع في أسره

وبهذا تم إضافة الشرعية علي الملك المعز عز الدين أيبك وأصبح يتبع الخليفة مباشرةً

وسأل قلاوون نفسه ، لماذا أيبك تحديداً هو الذي تولي السلطنة؟ هل لأنه بلا شوكة ويمكن خلعه في أي وقت ؟ أم لأنه أوسط الأمراء وأكثرهم اعتدالاً وحكمة ؟ وعندما يتساوي الجميع فمن يكون له الحق في العرش ؟

في الحقيقة إن هذا السؤال الذي تردد في ذهن قلاوون هو أساس جميع الصراعات بين أمراء المماليك وهو سر التنافس علي السلطة فإذا كان أحد الأمراء يجلس علي عرش مصر ويري أمير آخر أنه الأحق بذلك يبدأ الصراع بينهما علي السلطة

ولكنه صراع مرير ومغامرة كبري ولا يتدخل فيها الخليفة العباسي ، فمصر منذ عهد أحمد ابن طولون ثم الإخشيد ثم الفاطميين ثم الأيوبيين مستقلة بطريقة أو أخري عن الخلافة العباسية وارتباطها بالخلافة ارتباط رمزي لا يعني التبعية المطلقة كما كانت قبل عصر الدولة الطولونية

، أما فترة الحكم الفاطمي لمصر فقد كانت مستقلة عن العباسيين تماماً لاختلاف المذهب بل كانوا في حالة عداء دائم وحروب مستمرة ، فإذا استثنينا الفاطميين فإن باقي الدول التي تأسست في مصر سواء طولونية أو إخشيدية أو أيوبية ثم مملوكية بعد ذلك كلها كانت مستقلة ولكنها تتبع المذهب السني الذي كان يمثله الخليفة العباسي ،

ولكي نفهم مدي الحيرة التي كان يشعر بها قلاوون وأقرانه من أمراء المماليك البحرية لابد أن نعرف مفهوم هذا النوع من الاستقلال ، في المصطلح الإسلامي فهو يختلف عما نفهمه في الوقت الحاضر من تحقيق السيادة الخارجية ، بمعني ألا يكون علي الدولة نفوذ غير نفوذ أبناءها ، وأن هذا الاستقلال لا يشوبه أي تدخل في شئون الدولة الداخلية أو أي قيد علي مكانتها في المجتمع الدولي ، أما في العصور الوسطي ، فإن العالم الإسلامي كان يؤلف وحدة روحية ووحدة سياسية برئاسة الخليفة إمام المسلمين ، وكان الناس لا يعترفون بحكم لا يعترف به خليفة ، ولا ينظرون إلي من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلي الخوارج الذين يشذون عن رأي الجماعة ،

وللوالي أن يعطي نفسه من السلطات الداخلية ما طاب له ، وله أن يورث الحكم لأولاده علي الصورة التي يراها ، وليس عليه إلا أن يعترف بالخليفة إماماً للمسلمين ويعترف به الخليفة حاكماً شرعياً علي البلاد التي يحوزها ،

ومن هنا ينبغي أن نضع في الاعتبار أنه لم يكن من الممكن أن يستقل أحمد بن طولون – وغيره بعد ذلك – بمصر نهائياً عن الخلافة العباسية ، وبمعني آخر كان ظهور الدولة الطولونية في مصر يمثل انتقالاً من عصر التبعية المطلقة إلي عصر الاستقلال بالصورة التي عرفناها

ومن ثم لم يعد للخليفة العباسي أي نفوذ سياسي في مصر فيما عدا أنها اكتفت بذكر اسمه في الخطبة ونقشه علي السكة ، كما دأبت مصر علي إرسال جزء من الخراج إلي بغداد عن طواعية ، تعبيراً عن انتماءها الديني للإسلام الذي يجسده الخليفة من ناحية ، وكدليل ارتباط تقوم عليه وحدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كانت جميع الدول المستقلة في العالم الإسلامي تحرص عليه من ناحية أخري

## طبيعة الصراع علي السلطة بين أمراء المماليك

وقلاوون كغيره من سلاطين المماليك البحرية يدرك تماماً أهم ما يميز الصراع بين أمراء المماليك علي السلطة ، فعلي الرغم من أن الصراع علي السلطة في حد ذاته شئ بشع ومكلف للأموال والأرواح ويؤثر علي حالة البلاد والعباد إلا أن الصراع بين المماليك كانت له سمات خاصة وعجيبة ،

منها أنه كان داخل مصر أو داخل الدولة المملوكية عموماً ولا يتم تدويله بإدخال عناصر من خارج الدولة لمساعدة أحد الأمراء للوصول إلي السلطة اللهم إلا إذا استعان بعض الأمراء ببعض شيوخ العرب والبدو أحياناً في بعض المعارك ولكنهم في النهاية مقاتلين لا يخضعون لسلطان دولة من الدول ، وبالتالي لم يتم التدخل في شئون مصر الداخلية من دول أخري نتيجة لهذا الصراع ،

أما السمة الثانية فإن الصراع ينتهي بمجرد اختفاء أحد الأمراء المتنافسين علي السلطة سواء بالقتل أو السجن أو النفي أو التنازل ،

وبالتالي لا يستمر الصراع بواسطة أنصاره بعد اختفاءه وهذا يحقن الدماء ويهدئ الأمور ، حتي أنك إذا قرأت عن أحد هذه الصراعات في بعض الكتب وتابعت باهتمام أعمال القتل والنهب والسلب والجرائم التي ترتكب خلال هذا الصراع قد تتمني أن يتم التخلص بسرعة من أحد الأميرين المتنافسين حتي تهدأ الأمور ، فكل أمير منهم يلتف حوله أعداد ضخمة من المماليك ويقاتلون بشراسة وبمجرد موته أو تنازله ينتهي كل شئ بشكل يدعو للدهشة ،

كما يصفح الأمير المنتصر عنهم وتنتهي الفتنة ، أما السمة الثالثة من سمات هذا الصراع ابتعاد عامة الشعب عنه وعدم إقحامهم فيه إلا في حالات نادرة وكان كل أمير حريص علي رضا العامة عنه ليدعموه بالدعاء له بالنصر

## العرش أو القبر

يقول أبو فراس الحمداني في قصيدته الشهيرة :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ، لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا، لَنَا الصّدرُ، دُونَ العالَمينَ، أو القَبرُ

تَهُونُ عَلَيْنَا في المَعَالي نُفُوسُنَا، و منْ خطبَ الحسناءَ لمْ يغلها المهرُ

العرش أو القبر ، يا لها من مغامرة كبري غير مأمونة العواقب ، فهل تستحق ؟

فمن يتأمل هذا المعني لابد أن يفكر ألف مرة قبل أن يتخذ قرار المنافسة علي العرش في العصر المملوكي ،

ومن المؤكد أنه قرار صعب يحتاج إلي جرأة وقوة عزيمة وإرادة صلبة فالبقاء للأقوي دائماً فهي ليست نزهة خلوية أو مسابقة رياضية فالخسارة فيها تعني الموت

وقد يسبق هذا الموت ألوان من العذاب فالحبس وحده في انتظار القتل يقتل المحبوس كل لحظة أثناء حبسه ، وبالتالي فالقرار صعب ومصيري ، فما الذي يستحق كل هذا العناء ،

وفي هذا الصراع قد تكون جميع الأساليب مشروعة فالمسألة حياة أو موت فمن الممكن استخدام الخداع والمكر وبالتالي تنعدم الثقة بالآخرين ويرتاب الجميع في سلوك الجميع فقد تأتي الطعنة من الخلف ومن أقرب الناس إليك ،

وقد يتم القتل لمجرد استشعار نية القتل من الطرف الآخر فلا يوجد وقت للتحقق من ذلك أو التفكير في وسائل أخري ،

إن كل هذا يجعلك تشعر بالإشفاق علي هؤلاء المساكين الذين يدخلون في هذا الصراع ، فالمماليك حياتهم عبارة عن سلسلة من المعارك ومنازلهم هي صهوات جيادهم وصوت ضرب السيوف هو الصوت الذي يُطربهم ولمعانها يثيرهم كما أنشد عنترة بن شداد من قبل :

وَلَقَد ذَكَرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ – مِنّي وبِيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِن دَمي

فَوَدَدتُ تَقبيلَ السُيوفِ لأَنَّها – لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ

**انتقال السلطة بشكل طبيعي ،، كيف ؟**

ولكن ، كيف كانت تنتقل السلطة من سلطان إلي آخر في الأحوال العادية ؟

فكل ما سبق لا يعني أن السلطة كانت تنتقل دائماً بعد صراعات وإراقة للدماء خلال العصر المملوكي فهذا هو الاستثناء حتي لو كان يحدث كثيراً ولكن كانت بالتأكيد هناك قاعدة سلمية لتداول السلطة في العصر المملوكي وكلما اختلت يحدث الصراع ،

وهذه القاعدة كانت تعتمد بشكل عام علي نظام الأقدمية فقد كان المماليك يحترمون الأقدمية جداً فهناك أمير كبير وهناك أمير صغير وهناك من تولي وظائف عديدة وخاض معارك طاحنة كالأمير قلاوون نفسه مثلاً وهناك من لم يمر بعد بكل هذه الأمور وبالتالي كانت القاعدة العامة هي احترام مكانة وأقدمية كبار الأمراء ، ولم ينجح نظام توريث الحكم في عهد المماليك بشكل واضح

ويرجع السبب في عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك إلي أنهم كانوا جنوداً محاربين نشأوا نشأة واحدة وربوا تربية واحدة متجانسة فهم قوم قد انقطعت صلاتهم بأسراتهم منذ اشتروا في أسواق الرقيق أو أسروا في ميادين الحروب فضعفت عندهم مع الزمن معاني الصلات الأسرية وقويت عندهم في نفس الوقت معاني صلات أخري كان لها شأن كبير في حياتهم ، فكان يصعب علي المماليك دائماً أن يلي السلطنة ابن سلطان سابق لأنه لم ينشأ نشأتهم ولم يرب تربيتهم وليس بينهم من العلاقات ما يلزمهم بالولاء له فكانوا في العادة يقبلون سلطنة هذا الابن مؤقتاً احتراماً لما أُخِذ عليهم من مواثيق وأَيمان إلي أن تنتهي المشاورات بين كبراء أمراءهم ويتفقوا علي تولية أحدهم وكان الاختيار يقع عادة علي أقرب الأمراء إلي السلطان السابق ، وأقرب الأمراء إلي السلطان السابق كان في العادة أقدمهم والأخذ بنظام الأقدمية من المبادئ الهامة التي كان يحترمها ويعمل بها المماليك

وقد كان قلاوون أقرب الأمراء إلي الظاهر بيبرس السلطان السابق بالنسبة له وشاركه جميع المعارك ، أما أبناء بيبرس بركة خان وسلامش فليس لهم مكان في تاريخ بطولات المماليك

البحرية ، فأين هم من معركة المنصورة مثلاً أو عين جالوت ، وغيرها من الحروب ، أيتولي سلامش بن بيبرس السلطنة وقلاوون حيٌ يرزق ؟ إن هذا للعجب العجاب

ولكن كان قلاوون علي يقين أنه لم يكن عزل ابن الملك السابق معناه قتله ولكن المماليك كانوا يكتفون بعزله فقط أو إبعاده إلي مدينة بعيدة عن العاصمة معزز مكرم في منفاه الاختياري ،

لأن كل منهم كان يشعر بأن هذا سيكون مصير أولاده من بعده ، ولم يكن يعلم قلاوون بالطبع أنه سيكون شخصياً أشهر من قام بتوريث الحكم لأولاده من بعده ، لتصبح أسرته هي الأسرة الوحيدة في تاريخ المماليك التي حكم العديد من أبناءها مصر

ظل قلاوون يستعرض تاريخه الذي هو تاريخ مصر في نفس الوقت ، ويتعجب ويسأل نفسه ما سر كل هذا ؟ ولماذا عليه أن يتذكر كل هذه الأحداث بكل تفاصيلها ؟!!

ولكنه لم يتمكن من التوقف عن التفكير وخاصة عندما وصل شريط الذكريات إلي أول مواجهة مع التتار الملاعين في عين جالوت ، فأخذ يستعيد الأحداث بتركيز أكثر ، فهذه المرة الجيش مملوكي والقيادة أيضاً مملوكية وليست أيوبية

## ذكريات أم أحلام يقظة

والعجيب أن ذكريات قلاوون لم تكن تمر بخاطره كما تمر الذكريات العادية بل إنها كانت أشبه بأحلام اليقظة ، فقد كان ينام ثم يستقيظ ويغفو ثم يفيق فكانت رأسه تسقط علي صدره فيغمض عينيه فيشعر بالأحداث وكأنه يعيشها بالفعل في أحلامه، فيخوض غمارها ويتفاعل معها ، ولا يستطيع أن يمنع نفسه من كل ذلك ،

فيسمع جلبة الجيش المملوكي وهو خارج للقتال ، وقعقعة العجلات علي صخور الطرق ، وصهيل الخيل وجلجلة السلاح ، وصوت طبول الحرب ، وصيحات الشجعان وأنين الجرحي وسقوط القتلي ، ثم يفيق فجأة ويتأمل الأحداث والذكريات إلي أن يغلبه النوم فيعود مرة أخري لأحلامه ، فالنوم سلطان مثله تماماً بل هو سلطان أقوي منه فهو يتغلب عليه ، فمن منهما أحق بلقب سلطان ، هو أم النوم ،

وظل قلاوون بين النوم واليقظة ، وكأنه يستدعي النوم ليعيش في حدث معين ويغمره تماماً بكل تفاصيله ، ثم يستقيظ ليتأمله ويفكر فيه وهكذا

إنه لا يصدق ما يحدث له ،

فها هو يتذكر تفاصيل ما حدث ، عندما اقترب خطر التتار من مصر

ففي بداية عصر المماليك البحرية في مصر وتحديداً في عهد السلطان الصغير نور الدين علي ابن السلطان المعز عز الدين أيبك هاجم هولاكو العراق وقتل الخليفة المستعصم بالله

وخرب بغداد تخريباً شديداً واقترب خطر المغول من مصر ويقول السيوطي عن الخليفة العباسي المستعصم قتيل التتار

كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة – – ثم ركن المستعصم إلي وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار وناصحهم وأطمعهم في المجئ إلي العراق وأخذ بغداد – وصار إذا جاء خبر منهم كتمه علي الخليفة ويطالع بأخبار الخليفة التتار إلي أن حصل ما حصل ، ، ووصل التتار إلي بغداد . وبذل السيف في بغداد واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً ، ولم يسلم إلا من اختفي في بئر أو قناة وقُتِل الخليفة رفساً بالخيول، قال الذهبي : ما أظنه دُفِن ، وقُتِل معه جماعة من أولاده وأعمامه وأُسِر بعضهم وكانت بلية لم يُصَب الإسلام بمثلها ولم يتم للوزير ما أراد وذاق من التتار الذل والهوان ولم تَطُل أيامه بعد ذلك وعملت الشعراء قصائد في مراثي بغداد وأهلها

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم – – – ببقاء مولانا الوزير خراب

وقال بعضهم :

يا عصبة الإسلام نوحي واندبي – – – حزناً علي ما تم للمستعصمِ

دست الوزارة كان قبل زمانه – – – لابن الفرات فصار لابن العلقمي

لقد كانت ذكريات أليمة جعلت قلاوون يشعر بحزن شديد علي ما حدث لبغداد وأهلها بلا رحمة من التتار ، وانتشر وقتذاك الفزع والرعب في نفوس الرعية ، فالكل يعتقد أن مصيرهم سيكون كمصير بغداد وأهلها ،

وتطلع الجميع إلي المماليك ، فقد كانوا القوة الوحيدة في العالم الإسلامي التي يمكن الاعتماد عليها في صد التتار وحماية ما تبقي من بلاد لم تسقط بعد

وتم تولية الأمير قطز السلطنة سنة 1259م ، وكأن قلاوون يسمع صوت الأمير قطز وهو يقول بعد أن عزل السلطان الصغير ابن المعز أيبك :

(– إني ما قصدت إلا أن نجتمع علي قتال التتار ولا يتأتي ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم –)

وبالطبع لم يصدق جميع الأمراء هذا الكلام فقد ظن ضعفاء النفوس أن قطز ينتهز الفرصة كي يتولي السلطة وأشاع بعضهم ذلك

## ذكريات عين جالوت

وها هو قلاوون وكأنه يري قدوم الصاحب كمال الدين بن العديم إليهم رسولاً يطلب النجدة علي التتار ، وها هو الأمير قطز يأمر بجمع الأمراء والأعيان ، فحضر الشيخ عز الدين ابن

عبد السلام وكان المشار إليه في الكلام ، فقال الشيخ عز الدين : " إذا طرق العدو البلاد وجب علي العالم كلهم قتالهم ، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به علي جهازهم ، بشرط أن لا يبقي في بيت المال شئ وأن تبيعوا ما لكم من الحوائص والآلات ويقتصر كل منكم علي فرسه وسلاحه وتتساووا في ذلك أنتم والعامة ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا يتبقي مع كل مملوك إلا فرسه وسلاحه فقط يا لها من فتوي رجت أرجاء المكان قالها الشيخ في قوة حزم ورنت في أذن الجميع ، لقد كان العز بن عبد السلام هو بلا شك سلطان العلماء ، فكانت له مهابه في نفوس المماليك ، فلا يجرؤ أحد علي مجرد مقاطعة كلامه فضلاً عن الرد عليه ،

ألم يربيهم الملك الصالح علي احترام العلماء ؟

وتذكر قلاوون الشيخ العزّ بن عبد السلام فقد كان شيخاً جليلاً مهاباً حسن الصورة، منبسط الأسارير، متواضعاً في مظهره وملبسه، وكان لا يتأنّق ولا يتكلّف الحشمة ولا يستألف الوقار استألافاً،

ويبتسم قلاوون عندما تذكر فتوي الشيخ قديماً عندما أفتي بأن الأمراء المماليك عبيد ولا يصح لهم ما يصح للأحرار

ولهذا الشيخ ولفتواه قصة شهيرة فقد كان رحمه الله من أعظم علماء المسلمين ، وهو من مواليد دمشق سنة 577 هجرية 1181م ، ومن العلماء الذين لا يخافون في الله لومة لائم، وكان كثيرًا ما يواجه السلاطين بأخطائهم، وينصحهم في الله دون خوف ولا وجل، ولذلك لقبوه بلقب «سلطان العلماء» ، فقد جمع العزّ بن عبد السلام بين العلم والعمل، وبين الاتباع الشديد للسنة والاجتهاد الصحيح عند الحاجة، وبين الفتوى في الأمور العبادية والعقائدية والفتوى في الأمور السياسية والاجتماعية.. فكان بحق سلطانًا للعلماء، وقدوة للدعاة، وأسوة للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وسجل المؤرخون سيرة الشيخ وترجمته فكتبوا :

أنه قد عاش حياته في دمشق إلى أن تولّى «الصالح إسماعيل الأيوبي» أمر دمشق وهو أخو الملك الصالح نجم الدين أيوب ، والذي تحدثنا كثيرًا عنه وعن صلاحه وتقواه، لكن الصالح إسماعيل حاكم دمشق كان على شاكلة أخرى، فقد كان خائنًا لدينه وشعبه، فتحالف مع الصليبيين لحرب أخيه نجم الدين أيوب في مصر، وكان من شروط تحالفه مع الصليبيين أن يعطي لهم مدينتي صيدا والشقيف، وأن يسمح لهم بشراء السلاح من دمشق، وأن يخرج معهم في جيش واحد لغزو مصر، وبالطبع ثار العالم الجليل العز بن عبد السلام، ووقف يخطب على المنابر ينكر ذلك بشدة على الصالح إسماعيل، ويعلن في صراحة ووضوح أن

الصالح إسماعيل لا يملك المدن الإسلامية ملكًا شخصيًا حتى يتنازل عنها للصليبيين، كما أنه لا يجوز بيع السلاح للصليبيين، وخاصة أن المسلمين على يقين أن الصليبيين لا يشترون السلاح إلا لضرب إخوانهم المسلمين.

وهكذا قال سلطان العلماء كلمة الحق عند السلطان الجائر الصالح إسماعيل.. فما كان من الصالح إسماعيل إلا أن عزله عن منصبه في القضاء، ومنعه من الخطابة، ثم أمر باعتقاله وحبسه، وبقي العالم الجليل مدة في السجن، ثم أُخرج من سجنه ولكنه مُنع من الكلام والتدريس والخطابة، فرحل الإمام الجليل من دمشق إلى بيت المقدس ليجد فرصة ليعلم الناس هناك بدلًا من السكوت في دمشق، وأقام بها مدة، ولكنه فوجئ بالصالح إسماعيل يأتي إلى بيت المقدس ومعه ملوك الصليبيين وجيوشهم وهم يقصدون مصر لاحتلالها، وأرسل الصالح إسماعيل أحد أتباعه إلى الشيخ العز بن عبد السلام ، وكان متلطفًا له غاية التلطف، بل ووعده بالعودة إلى كل مناصبه بشرط أن يترضى الصالح إسماعيل، ويعتذر له، بشرط ألا يتكلم في أمور السياسة، وإلا اعتقله.

وذهب رسول الصالح إسماعيل إلى العز بن عبد السلام وقال له :

- «بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه، وزيادة، أن تنكسر للسلطان، وتُقبل يده لا غير!».

فرد عليه العز بن عبد السلام في كبرياء وعزة قائلًا:

- «والله يا مسكين، ما أرضاه أن يُقبل يدي، فضلًا أن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد، وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به».

كان رد الصالح إسماعيل متوقعًا، فقد أمر باعتقال الشيخ الكبير في بيت المقدس، إلي أن أحضره الملك الصالح إلي مصر بعد ذلك ، حيث استُقبل أحسن استقبال، وقرب جدًّا من السلطان الصالح أيوب ، وأعطاه الخطابة في مسجد عمرو بن العاص، وولاه القضاء.

ومن مواقفه الشهيرة التي اصطدم فيها مع الصالح أيوب نفسه، أنه لما عاش في مصر اكتشف أن الولايات العامة والإمارة والمناصب الكبرى كلها للمماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب قبل ذلك، ولذلك فهم في حكم الرقيق والعبيد، ولا يجوز لهم الولاية على الأحرار، فأصدر مباشرة فتواه بعدم جواز ولايتهم؛ لأنهم من العبيد.

واشتعلت مصر بغضب الأمراء الذين يتحكمون في كل المناصب الرفيعة، حتى كان نائب السلطان مباشرة من المماليك، وجاءوا إلى الشيخ العز بن عبد السلام، وحاولوا إقناعه بالتخلي عن هذه الفتوى، ثم حاولوا تهديده، ولكنه رفض كل هذا مع إنه قد جاء مصر بعد

اضطهاد شديد في دمشق، ولكنه لا يجد في حياته بديلًا عن كلمة الحق، فرفع الأمر إلى الصالح أيوب، فاستغرب من كلام الشيخ، ورفضه، وقال :

- إن هذا الأمر ليس من الشئون المسموح بالكلام فيها.

وهنا وجد الشيخ العز بن عبد السلام أن كلامه لا يُسمع، فخلع نفسه من منصبه في القضاء، فهو لا يرضى أن يكون صورة مُفتٍ، وهو يعلم أن الله عز وجل سائله عن سكوته كما سيسأله عن كلامه، ومن هنا قرر العالم الورع أن يعزل نفسه من المنصب الرفيع، ومضحيًا بالوضع الإجتماعي وبالمال وبالأمان بل وبكل الدنيا.

وركب الشيخ العز بن عبد السلام حماره، وأخذ أهله على حمار آخر، وببساطة قرر الخروج من القاهرة بالكلية، والاتجاه إلى إحدى القرى لينعزل فيها إذا كان لا يُسمع لفتواه، ولكن شعب مصر المقدّر لقيمة العلماء رفض ذلك الأمر، فماذا حدث؟

لقد خرج خلف الشيخ العالُم الآلاف من علماء مصر ومن صالحيها وتجارها ورجالها، بل خرج النساء والصبيان خلف الشيخ تأييدًا له، وإنكارًا على مخالفيه.

ووصلت الأخبار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب فأسرع بنفسه خلف الشيخ العز بن عبد السلام واسترضاه، فما قبل إلا أن تنفذ فتواه، وقال له: إن أردت أن يتولى هؤلاء الأمراء مناصبهم فلابد أن يباعوا أولًا، ثم يعتقهم الذي يشتريهم، ولما كان ثمن هؤلاء الأمراء قد دفع قبل ذلك من بيت مال المسلمين فلابد أن يرد الثمن إلى بيت مال المسلمين!

وافق الملك الصالح أيوب، وتولى الشيخ العزّ بن عبد السلام بنفسه عملية بيع الأمراء حتى لا يحدث نوع من التلاعب، وبدأ يعرض الأمراء واحدًا بعد الآخر في مزاد، ويغالي في ثمنهم، ودخل الشعب في المزاد، حتى إذا ارتفع السعر جدًّا، دفعه الملك الصالح نجم الدين أيوب من ماله الخاص واشترى الأمير، ثم يعتقه بعد ذلك، ووضع المال في بيت مال المسلمين، وهكذا بيع كل الأمراء الذين يتولون أمور الوزارة والإمارة والجيش وغيرها، ومن يومها والشيخ العز بن عبد السلام يعرف بـ«بائع الأمراء!»

ويتبدى لنا من هذه القصة، وفي سيرة الشيخ العز بن عبد السلام بصفة عامَّة، قيمة العلم والعلماء في مصر في ذلك الوقت، واحترام الناس لكلمة الشرع، وكل هذا كان له أثر بالغ في تكوين الشعب المصري، وفي استجابته لنصائح العلماء، التي أثرت في حضارة الدولة المملوكية.

ونعود لذكريات وأحلام المنصور قلاوون بطل قصتنا ، حيث تذكر فتوي الشيخ بجمع الأموال من الأمراء أولاً ثم من الرعية

وبالفعل ، تم جمع الأموال استعداداً لقتال العدو ،

وأرسل هولاكو رسلاً من عنده إلي مصر يحملون رسالة تحذير وتهديد ، ويتذكر قلاوون نص رسالة هولاكو التي يعتقد قلاوون أن أحد عملاء التتار هو الذي صاغها له ، فأسلوبها العربي ينم عن ذلك حيث كتب يقول :

(- فيا أيها الباقون أنتم بمن مضي لاحقون ، يا أيها الغافلون أنتم إليهم تساقون ، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة ، مقصودنا الانتقام وملكنا لا يرام ونزيلنا لا يضام ، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر ومن سيوفنا أين المفر - - دمرنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب وجعلنا عظيمهم صغيرا وأميرهم أسيرا ، تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون -)

يا له من مغرور متكبر بل أحمق متهور ، لا يعلم من سيواجه ، فهل كان يعلم أنه سيواجه المماليك البحرية ، رجال الملك الصالح ، أشرس من امتطي الجياد علي وجه الأرض ، لا يعرفون سوي القتال مهنة ، ولا يفهمون ماذا تعني كلمة الاستسلام أو الانسحاب ، ولا يمكن خداعهم كما خدع من قبلهم ، حيث استسلمت البلاد التي قبلهم ثم قتلهم التتار شر قتلة ، إن التتار السفلة لا يهمهم استسلام أو عدم استسلام فسوف يقتلون كل من في المدينة المستسلمة علي أي حال ، فمن الغباء الاستسلام لهم بعد ما ارتكبوه من فظائع وجرائم في المدن والبلاد التي استسلمت دون قتال

وبالتأكيد كان قطز مثل قلاوون وبيبرس وغيرهم من البحرية علي علم تام أنه لن يكون هناك أي فرق بين الاستسلام أو عدم الاستسلام فهم علي أي حال سوف يقتحمون مصر ويدمرونها كما دمروا غيرها وسيقتلون الناس بلا رحمة

نعم ولذلك كان رد قطز بلا تردد هو قطع رؤوس رُسُل هولاكو

ويغفو قلاوون ليتذكر هذا المشهد ويشاهده في أحلامه ويري كيف قام قطز بقتل حاملي رسالة هولاكو ، وكيف علق رؤوسهم علي أبواب القاهرة وكيف أخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول ،

ويسخر قلاوون في نفسه من الذين قالوا أن الرسول الذي يأتي برسالة من العدو مؤتمن علي حياته ، فعن أي رسول يتحدثون ؟ ، وهل ينطبق هذا الكلام علي شخص جاء ليجعلك تستعد للموت في هدوء ودون أن تبدي أي مقاومة ، ويقول لك :

- فلتنحني في صمت وتنتظر في هذا الوضع حتي أذهب لإحضار السيف كي أقطع رأسك ،
- حسناً سأنتظر في صمت فلا تتأخر ،

يا له من نقاش عقيم دار بين بعض الأمراء حول أمن الرسل حسمه قطز بقوة فلم يملك أحد أن يعارضه

وبدأ النضال العنيف بين عنصرين من أخطر وأقوي العناصر المحاربة وبين فنين من فنون الحرب الممتازة في العصور الوسطي ، وقد تأرجح النصر مرات بين الفريقين أثناء المعركة ففي أول المعركة هُزِم المماليك وتفرقوا

ولكن قطز ثبت في مكانه وألقي بخوذته إلي الأرض وصرخ بأعلى صوته " وا إسلاماه "

وحمل بنفسه علي العدو فالتف المماليك حوله ثانيةً وانتصروا علي عدوهم – – – غير أن التتار لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وتجمعوا وتقدموا وأوشكوا أن ينتصروا علي المماليك ثانية فتقدم قطز وصرخ صرخته الأولي ثلاث مرات " وا إسلاماه ،

يا الله انصر عبدك قطز علي التتار "

فأثارت هذه الصرخة وهذا الدعاء حمية المماليك وحملوا علي التتار حتي هزموهم هزيمة شنعاء فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه علي الأرض وقبلها وصلي ركعتين شكراً لله –)

لقد تذكر قلاوون كل هذه الأحداث ، وكأنها تحدث أمامه ، وكأن صيحة قطز تتردد في سمعه ، وا إسلاماه ، لقد أيقن الجميع في هذه اللحظة صدق قطز في طلبه للسلطنة ،

في هذه اللحظة فقط تأكد الجميع أن قطز غير طامع في السلطنة بل هي بالنسبة له وسيلة للدفاع عن شرف الأمة في مواجهة التتار ، وليست غاية ليرتقي عرش مصر ، يا الله انصر عبدك قطز ، علي التتار ، عبدك قطز ،

إنه في قمة الضعف الإنساني يلجأ إلي الله ، لقد ألهبت هذه الكلمة حماس المماليك حتي الذين كانوا يظنون بقطز الظنون ويشُكُّون في نواياه ، وانتهت معركة عين جالوت بالانتصار الساحق بفضل الله ورحمته ،

ألم تكن المعركة في الشهر الفضيل شهر رمضان الكريم والجميع صائمون في رمضان سنة 658هـ / 1260م

## قطز وبيبرس وضعفاء النفوس

ويتذكر قلاوون في أسي وحزن كيف وقع الخلاف بين قطز وبيبرس بعد أن انتهت معركة عين جالوت بالانتصار الساحق للمسلمين علي التتار ،

أهو الأسلوب المملوكي الذي لا يرحم ؟ الذي يسميه البعض الدفاع المشروع عن النفس

عندما تكون نية القتل سبب في القتل ، ومن قال أن هناك نية للقتل ؟

إنهم ضعاف النفوس الذين يحاولون دائماً أن يوقعوا الخلاف والوحشة بين الملك المظفر سيف الدين قطز والأمير ركن الدين بيبرس وللأسف الشديد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً

كما أوقعوا من قبل بين تورانشاه ومماليك أبيه ، بل وأوقعوا بين المعز أيبك وزوجته شجرة الدر ، فقتل بعضهم بعضاً ، ويتساءل قلاوون لماذا يحدث هذا دائماً بعد كل نصر وكل فرحة ، ولا يحدث في الأوقات العادية ، هل هناك من يكره أن ينعم أحد بفرحة الانتصار فيفسد الأمور ويوقع الوحشة بين المحبين ويخلق جو من التوتر والقلق والرعب فيحدث القتل وتقع الكارثة ؟
وقلاوون يعرف ويدرك جيداً أن ضعاف النفوس موجودون في كل مكان وكل زمان تقريباً ولا يعجبهم الناجحين وتراهم يحقدون ويفسدون كل نصر أو تقدم ، إنهم يحزنون عندما يفرح المسلمون ، يؤذيهم نجاحهم فيعملون جهدهم علي إفساد أي فرحة بأي نصر
فهل كان يعلم قلاوون وهو يحلم أن المؤرخون فيما بعد سيكتبون عن معركة عين جالوت هذا الكلام :
(– فأقبل المظفر بالجيوش وشاليشه ركن الدين بيبرس البندقداري ، فالتقوا هم والتتار عند عين جالوت ووقع المصاف وذلك يوم الجمعة خامس عشر رمضان فهزم التتار شر هزيمة وانتصر المسلمون ولله الحمد وقتل من التتار مقتلة عظيمة وولوا الأدبار
وجاء كتاب المظفر إلي دمشق بالنصر فطار الناس فرحاً ، وأحبه الخلق غاية المحبة ، وساق بيبرس وراء التتار إلي بلاد حلب وطردهم عن البلاد ووعده السلطان بحلب ، ثم رجع عن ذلك فتأثر بيبرس من ذلك وكان ذلك مبدأ الوحشة وكان المظفر عزم علي التوجه إلي حلب لينظف آثار البلاد من التتار فبلغه أن بيبرس تنكر له وعمل عليه
ويتساءل قلاوون في نفسه : من الذي أبلغه ؟
إنه لا يعرف ، ولكن من المؤكد أنه شخص يريد أن تقع الوحشة بينهما
ويردد قلاوون بينه وبين نفسه ، آه لو اكتشف من يكون هذا الرجل في يوم من الأيام ، فيا ويله من العقاب
ويتذكر قلاوون مرة أخري ما حدث ويعيد ترتيب الأحداث ، ، حيث أن قطز لما وصله هذا البلاغ ، فصرف وجهه عن– التوجه إلي حلب– ورجع إلي مصر وقد أدمر الشر لبيبرس وأسرَّ ذلك إلي بعض خواصه ، فأطلع علي ذلك بيبرس
ويتساءل مرة أخري : من هم خواصه هؤلاء وما هي علاقتهم بيبيرس ؟؟ ،
وإذا كانوا خواصه فعلاً فكيف يفشون سره إذا كان قال هذا الكلام فعلاً ؟
لا يعرف قلاوون الإجابة علي هذه الأسئلة ، أما ما كتبه المؤرخون في كتبهم بعد وقوع هذه الوقيعة بينهما :
(فساروا إلي مصر وكل منهم محترس من صاحبه –)
وهنا أصبح هناك اثنان من الأسود في قفص واحد ولابد من مقتل أحدهما

وتم القتل للأسف الشديد بعد أن استغل ضعاف النفوس عدم تعيين بيبرس والياً علي حلب فنجحوا في إقناع كل من الطرفين أن كل منهما يحاول قتل الآخر والتآمر عليه فاعتبر كل واحد منهما أن قتل الآخر هو ببساطة شديدة

" دفاع مشروع عن النفس "

ويتولي بيبرس السلطنة ، أليست هذه هي القاعدة المتبعة بين المماليك أم أنها بالفعل أصبحت القاعدة المتبعة بعد ذلك

لقد أسس لها الأمير المخضرم عندما رأي قطز قتيلاً

فسأل :

- من قتله ؟

فقال بيبرس :

- أنا

فقال :

- يا خوند اجلس مكانه

وهكذا قرر المملوك المخضرم عدم فراغ هذا المنصب لحظة واحدة والعدو لم يغادر حدودنا بعد ، إن خطر فراغ منصب السلطنة أشد من خطر حدوث فتنة بين المماليك فيقتل بعضهم بعضاً ، فيعود التتار ليلتهموا الجميع ، وتضيع الأمة كلها لا قدر الله

ويتولي بيبرس السلطنة ، ويقرر قلاوون مساعدته بإخلاص ، فقلاوون لا يعنيه من يكون السلطان ، بقدر ما يعنيه أن يؤدي واجبه ، وواجبه أن يقضي علي الفتنة ويسمع ويطيع لولي الأمر

ويُثبت بيبرس مع الوقت جدارته في الحكم وتصريف الأمور بحكمة وشجاعة ،

لقد أخلص قلاوون لبيبرس كما كان يخلص لقطز وكما كان يخلص لأيبك ومن قبلهم جميعاً الملك الصالح ، أستاذهم ومربيهم جميعاً علي الإخلاص ، إن شخص السلطان ليس هو المهم ، فالأهم هو انتصار الدين والوطن ، فهو لا يشك في إخلاص كل هؤلاء في نصرهم للدين والوطن ، فالملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، وقلاوون تعلم الجهاد في سبيل الله مع من يرفع راية التوحيد ، وكل منهم قد رفعها ،

ويستمر قلاوون في مراجعة ذكرياته ويراها في أحلامه، فيتذكر انتصارات بيبرس والمعارك التي خاضوها معاً

**سيرة الظاهر بيبرس**

**يتذكر قلاوون كيف تولي السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس حكم مصر سنة 658 هـ – 1260م وتم في عهده تحقيق حلم ابن طولون والإخشيد**

**فقد أخبرهم معلمهم من قبل كيف ألح ابن طولون ومن بعده الإخشيد علي الخليفة العباسي أن يترك بغداد بعد أن زادت فيها المؤامرات والاضطرابات ويحضر إلي مصر ويتخذها مقراً له لتكون عاصمة للخلافة العباسية ولكنهم لم يرغبوا في ترك بغداد أبداً**

**وها هي بغداد يتم تدميرها علي يد التتار بلا رحمة**

**فقام بيبرس باستضافة الخلافة العباسية في مصر لتصبح مصر لأول مرة في تاريخها مقر خلافة وسلطنة في وقت واحد ، خلافة عباسية وسلطنة مملوكية**

**حقيقةً قد كانت القاهرة مقراً للخلافة الفاطمية قبل ذلك ولكن كانت هناك خلافتان أخريان تعاصرانها وتنافسانها ، هما الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الأموية في قرطبة ، أما في العصر المملوكي فلم يكن هناك في العالم الإسلامي سوي خلافة واحدة هي خلافة القاهرة**

**أي مجد وأي فخر للقاهرة ولمصر المحروسة حققه بيبرس عندما جعلها مقر للخلافة العباسية ، لقد كان هذا حلم كل من سبقه من حكام وخاصة خلال الدولتين الطولونية والإخشيدية والقاهرة كانت المحطة الأخيرة للخلافة العباسية ،**

**ويحدّث قلاوون نفسه ويسأل كما سأل بيبرس من قبل عما فعله التتار بعد هزيمتهم في عين جالوت؟ ،**

**لقد كان بيبرس علي علم أن المغول سوف ينتقمون مما حدث لهم في عين جالوت فأعد العدة لقتالهم وكان في نفس الوقت يواجه خطراً صليبياً من نوع آخر وظل بيبرس يقاوم كل منهما بكافة الوسائل بمعاونة صديقه قلاوون ، وبمشورته في كثير من الأحيان**

**وكان بيبرس في دمشق وقد فرغ من أمر الصليبيين وعلم أن التتار قد أعادوا الهجوم علي البيرة فتقدم نحو الشمال يقود الجيش بنفسه ثم حمل بعض السفن المفككة إلي نهر الفرات حيث أعاد تركيبها وعبر بجنوده إلي الشاطئ الشرقي حيث انتصر علي التتار الذين تقهقروا سريعاً واحتل بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها – ومنذ ذلك الحين اتجه النضال بين بيبرس وبين التتار إلي ميدان آخر إلي آسيا الصغرى**

**، وكانت المعركة الكبرى لبيبرس ضد جيوش المغول وحلفاءهم من سلاجقة الروم في "الأبلستين" في سنة 675 هـ – 1277 م ، وفيها انتصر بيبرس انتصاراً حاسماً عظيماً وانتقل بعد هذا النصر إلي قيسارية عاصمة الدولة ونزل بدار السلطنة وجلس علي عرش سلاجقة الروم ولهذه الوقعة نتيجة هامة أخري فقد حطمت دولة سلاجقة الروم وأتاحت الفرصة**

لقيام دويلات تركية أخري في أنحاء آسيا الصغري سيكون لبعضها شأن عظيم فيما بعد ، من هذه الدويلات ، دولة بني قرمان ودولة بني عثمان

وبهذا كسر بيبرس شوكة التتار ، ولكن بيبرس لم يقدم علي مهاجمة الصليبيين إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل علي ما كان يمتاز به من ذكاء خارق ومواهب سياسية فذة ، كانت هذه الخطة تتلخص في عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوي الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين لتحقيق هدفين ،

أولهما أن يمنع هذه القوي أن ترسل أو تسمح بمرور أي مدد إلي الصليبيين ولإيقاف جيوش المغول إن فكرت في التقدم لمساعدة الصليبيين ، واستمر بيبرس في حروبه ضد الصليبيين لمدة عشر سنوات كاملة

وكان يتزامن أحياناً القتال مع الصليبيين مع القتال علي جبهات أخري ضد المغول وغيرهم ، وقد لقي بيبرس في حملاته ضد الصليبيين مشاق ومتاعب جمة غير أنه كان المنتصر دائماً فلم ينهزم قط في معركة من معاركهم ولم يمتنع عليه حصن من حصونهم

وكانت أهم إنجازات بيبرس في قتاله ضد الصليبيين تحرير إمارة صليبية كبري وهي إمارة إنطاكية ، هذه الإمارة الصليبية أحد الإمارات الأربعة اللاتي أسسها الصليبيون في الشام (الرها وانطاكية وبيت المقدس وطرابلس ) إذن فقد انضم بيبرس لأبطال التحرير الذين حرروا تلك الإمارات الكبري وبقيت بعده طرابلس فقط وهي الإمارة الرابعة

وهنا تذكر قلاوون ما قاله الملك الصالح له في رؤياه :

- ستكون رابع أربعة ،

يا الله ، يا لها من بشري ، هل سيحرر هو طرابلس ليصبح رابع الأربعة ؟

إن قلاوون يتذكر جيداً ما تعلمه من معلمه منذ أن كان غلاماً في جزيرة الروضة دروس تاريخ الأمة الإسلامية وكيف تهاوت الإمارات الصليبية -- من قبل علي أيدي أبطال الجهاد المسلمين ، فسقطت إمارة الرها علي يد عماد الدين زنكي ، وسقطت إمارة بيت المقدس علي يد الناصر صلاح الدين الأيوبي وها هي تسقط إمارة إنطاكية علي يد الظاهر بيبرس ولم تعد إلا الإمارة الرابعة وهي إمارة طرابلس التي كان يحكمها أمراء النورمان ، وبقيت بعض فلول الصليبيين في مدن أخري متناثرة وهي بقايا مملكة بيت المقدس وكان مقرها مدينة عكا وحصن المرقب ويحكمه فرسان الاسبتارية وطرسوس ويحكمها فرسان الداوية

هل سيستكمل قلاوون هذه الرحلة كما فعل بيبرس

ولقد انتشرت أخبار انتصارات بيبرس في كل مكان ، فهو لم يُهزم في معركة واحدة

، وقد كان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوي في نفوس الشعب العربي في مصر والشام فأعجب ببطولة بيبرس وأكبره وراح يتغنى بشجاعته وانتصاراته وألف أديب مصري مجهول "سيرة الظاهر بيبرس" فكانت ملحمة للبطولة وظلت يتغنى بها الشعراء والقصاص في مجالس السمر ليثيروا النخوة والعزة والبطولة في نفوس الشعب

**المصاهرة بين بيبرس وقلاوون**

لقد لمع قلاوون في عهد السلطان الظاهر بيبرس؛ الذي أولاه ثقته؛ لرجاحة عقله وشجاعته، وتصاهرا؛ تأكيدًا على رُوح المحبَّة والصداقة بينهما

وحدثت هذه المصاهرة عندما أحس الظاهر بيبرس بازدياد نفوذ وعظم مكانة قلاوون في الدولة فخشي على خططه التي كانت تهدف إلى تولية ابنه محمد بركة خان من بعده، فعمد إلى توثيق علاقة ابنه بقلاوون عن طريق إتمام زواج ابنه من غاذية خاتون ابنة قلاوون سنة674 هـ1275/م ظناً منه أن قلاوون لن يطمع في انتزاع الملك من زوج ابنته.

إن قلاوون يذكر جيداً اللقاء الذي جمعه بصديقه العزيز ورفيق السلاح والملك الشجاع المحبوب الظاهر بيبرس ،

حيث عرض عليه بيبرس في هذا اللقاء زواج ولي عهده من ابنته

لم يشك قلاوون لحظة في نوايا بيبرس وهدفه من هذا الزواج ، إن قلاوون يمكنه أن يفهم بيبرس بمجرد النظر إلي تعبيرات وجهه ، ألم يرافقه في أدق وأخطرمراحل حياته ، وغادرا مصر معاً إلي حلب عندما تولي المعز أيبك السلطنة ، وكانت لهما الكثير من الذكريات هناك ،

حلب الشهباء ، كم يحب هذه المدينة كما يحبها المماليك ، إنها مدينة تسحر العيون وتجذب القلوب ، ألم يقل فيها الأخطل الصغير :

نَفَيْتَ عَنْكَ العُلى وَالظَّرْفَ وَ الأَدَبا ** وَإِنْ خُلِقْتَ لَها إِنْ لَمْ تَزُرْ حَلَبَا

لو ألّف المجد سفراً عن مفاخره ** لراح يكتب في عنوانه .. حلباً

شَهْباءُ ، لَوْ كانَتِ الأَحْلامُ كَأْسَ طِلا ** في راحَةِ الفَجْرِ كُنْتِ الزَّهْرَ والحبَبَا

أَوْ كانَ لِلَّيْلِ أَنْ يَخْتَارَ حِلْيَتَهُ ** وَقَدْ طَلَعْتِ عَلَيْهِ لازْدَرى الشُّهُبَا

ثم تركا حلب وعادا معاً أيضاً عندما تولي المظفر قطز الحكم وشاركاه في قتال التتار معاً ، ثم بايع بيبرس ليتولي الملك بعد أن وقعت الوحشة بينه وبين قطز

وتذكر قلاوون حديثه لنفسه عندما تساءل :

- تُري هل يمكن لأحد أن يوقع بينهما كما حدث بين قطز وبيبرس ؟؟ ،

ويستبعد هذا الاحتمال لأسباب كثيرة

**ولكن ماذا يفعل وقد عرض عليه بيبرس المصاهرة ؟ ، فليس لديه أي اختيارات ، فليوافق إذن بحب وإخلاص حقيقيين ، ولكن فلينصح بيبرس بإعداد ولده وولي عهده للحكم جيداً فحكم مصر ليس بالأمر الهين ،**

**لقد كان قلاوون هو السلطان المملوكي الوحيد تقريباً الذي استطاع أن يُعِد أولادَه للحكم بل وجعلهم يشاركونه أحلامه في تحرير الشام وصد المغول والعمل علي رفاهية الشعب وتشييد أروع العمائر الإسلامية التي تنفع الناس ،**

**وكان قلاوون لا يمانع أبداً في أن يبايع أبناء بيبرس لتولي الحكم ولكن بشرط أن يقوم بإعدادهم الإعداد المناسب لذلك**

**كان بيبرس في هذا اللقاء يبدو سعيداً بشوشاً ،**

**كانت كل خلجة من خلجات وجهه الوسيم تنطق بالتفاؤل والبشر ، وابتسامته الحلوة مرسومة فوق شفتيه في دقة وحساب ، لا تتسع ولا تضيق ،**

**ويوم العرس كان يوماً حافلاً ، فامتدت الولائم في جميع الأنحاء ، وزُينت القاهرة زينة مبهجة وتنافس الأمراء في مجاملة السلطان وتقديم الهدايا وتقديم الطعام والحلوي للجميع ،**

**وتذكر قلاوون شعور ابنته وهي تتوقع عزل زوجها من السلطنة بعد أن يتولاها بفترة قصيرة ، أليست هذه عادة المماليك ؟ ،، فهل سيكون عزله علي يد أبيها ؟**

## السلطان السعيد محمد بركة خان علي عرش مصر والشام

**وعندما توفي الظاهر بيبرس رحمه الله سنة 676 هـ – 1277م جدد الأمراء البيعة لابنه السلطان السعيد محمد بركة خان،**

**فما أجمل السلطان السعيد الصحبة مع قلاوون ولا راعى له حق القربة،**

**يا لها من صدمة شعر بها قلاوون ،**

**لماذا يعامله السلطان بركة خان بهذا الأسلوب ، ألم يوصه أبوه بصديقه القديم ، أليس هو نفسه يكون زوج ابنته ، هل هذه المعاملة تليق بأمير كبير شارك في جميع المعارك والانتصارات منذ معركة المنصورة ، بل هذه معاملة تليق بأحد المماليك الصالحية النجمية ، مماليك الملك الصالح رحمه الله ، الذين تربوا علي مبادئ وأسس وضعها بدقة وإحكام ،**

**إن السلطان الصغير لا يدرك فضل هؤلاء الأبطال ، لقد اعتمد علي مماليك أبيه ، الذين يسمون أنفسهم المماليك الظاهرية نسبة إلي الظاهر بيبرس رحمه الله**

**ولقد تذكر قلاوون أنه لاحظ في ذلك الوقت أن هذه المعاملة لم تكن تخصه هو فقط**

**بل زاد الخلاف بين السلطان السعيد والمماليك الصالحية بشكل عام بعدما قرَّب إليه جماعة من المماليك الأحداث وأطلق يدهم في إدارة شؤون الدولة**

كيف يترك أقرانه من الشباب عديمي الخبرة يعبثون بأمور السلطنة ؟
وزاد الأمر بتدخل المماليك الخاصكية في توزيع الإقطاعات، بل وزاد الطين بلة كما يقال فعوَّل كذلك على التخلص من المماليك الصالحية الذين استاؤوا من تصرفاته وسجن بعضهم،
يا لها من مأساة أن يسجن رجال الصالح العظيم
وكان قلاوون وهو في قمة التأثر يكاد أن يبكي ولسان حاله يقول قول الشاعر طاهر أبو فاشا رحمه الله

فَيَرْمِيني على العبراتِ وَجْـدٌ
وَيَثْنِينـي عـن العبـراتِ وَجْدُ
ولـو أَنـي بكيتُ لَخَفَّ ما بـي
ولكـنَّ البُكـاءَ لِلْحُـرِّ قَيْــدُ

ولما تطور الخلاف بين السلطان والصالحية لم يتمكن الأمراء الكبار أن يتحملوا أكثر من ذلك فقرروا تنفيذ القواعد المملوكية التي لا ترحم
فحاصر الأمراء القلعة وأصروا على أن يخلع السلطان نفسه ، فلم يملك إلا الإذعان ، فهو لا يستطيع العبث مع هؤلاء فَخَلَع نفسه من السلطنة وطلب منهم أن يعطوه قلعة الكرك لتكون مقراً له ومنفي اختياري إكراماً لوالده فأجابوه إلى ذلك.
وبعد خلع السلطان السعيد محمد ، قرر الأمراء عدم خلو المنصب حفاظاً علي استقرار البلاد والتفتوا فلم يجدوا خيراً من الأمير الكبير قلاوون الألفي فعرض كبار الأمراء السلطنة على قلاوون، فأظهر بُعد نظر وذكاء بأن رفض إجابة طلبهم وإعلانه عدم طمعه في الملك، وأن ما حدث ما كان إلا حفظاً للنظام والدولة وجيوش الإسلام، وأن الأولى أن يخرج السلطان من ذرية الظاهر بيبرس، واتفق الأمراء على تولية بدر الدين سلامش وعمره سبع سنين ولُقِّب بالعادل، واختير قلاوون أتابكا له، ومدبر شئون المملكة

## قلاوون الأتابك يتخلص من المماليك الظاهرية

وهكذا أصبح قلاوون أتابك السلطان الصغير وهو المنصب الذي يطلقونه علي قائد الجيوش ،
وهنا قرر قلاوون أن يمهد لسلطنته بحكمة ، فهو عندما رفض منصب السلطنة كان يُدرِك حجم توغل المماليك الظاهرية في شئون الحكم وسيطرتهم علي معظم الأماكن والمواقع المهمة في مصر والشام ، فلن يستقيم الأمر له في الحكم إلا بعد أن يتخلص منهم ويقوم بنشر المماليك الصالحية في كل مكان حتي يتمكن من الحكم مع من يثق بهم
فاستغل قلاوون الفرصة وأخذ يُمكِّن لنفسه بإقصاء المماليك الظاهرية من مناصب الدولة والجيش، وقرب إليه المماليك الصالحية، وأخذ يتصرف في أمور الحكم مدة ثلاثة أشهر،

## قلاوون والعرش

وبعد أن شعر المماليك الصالحية أنهم يتحكمون في شئون الدولة تماماً وقد لاحظوا وتابعوا بإعجاب ما قام به المنصور قلاوون وسياسته في إبعاد المماليك الظاهرية عن شئون الدولة وتمكينهم من كل شئ استقر الرأي على خلع السلطان العادل سلامش ونفيه مع أخيه خضر إلى قلعة الكرك، وجلس قلاوون على تخت السلطنة في شهر رجب سنة 678 هـ – 1279م فدعم مركزه بإسناد المناصب الكبرى إلى خشداشيته

وها هو قلاوون يتولي السلطنة بعد أن أصبح آخر الأمراء القليلين الذين ظلوا علي قيد الحياة من أمراء معركة المنصورة ، وعليه أن يثبت للجميع أنه من رجال الملك الصالح ، فلم يعد هناك أحد علي أرض مصر من المماليك من هو في خبرته وتاريخه ، لقد خاض غمار جميع المعارك منذ معركة المنصورة وشارك في جميع الانتصارات علي التتار والصليبيين ، فهو أحق من يجلس الآن علي عرش مصر ، بل إن مصر في حاجة لجلوسه علي عرشها من حاجتها لأي أمير آخر

وكما قال أبو العتاهية قديماً مهنئاً أحد الخلفاء العباسيين

أتته الخلافةُ مقهورة تكاد تجرجرُ أذيالها

فلم تكُ تصلح إلا له ولم يكُ يصلحُ إلا لها

ولو ذهبت لأميرٍ سواه لزُلزلت الأرضُ زلزالها

إنها إرادة الله أن تصل الخلافة إلي هذا الأمير ومن المستحيل أن تذهب لغيره ، وكذلك السلطنة ، فالملك بيد الله وحده سبحانه وتعالي

ولقد حان الوقت ليتحمل قلاوون المسئولية كاملة ويقوم بدوره المحتوم

## المنصور يحلم بتكرار تجربة الصالح

أخذ المنصور قلاوون يفكر في إعادة تجربة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وما المانع من إعادة التجربة تحت إشرافه المباشر ، ولكن ليس في جزيرة الروضة هذه المرة

فلتكن في أبراج القلعة نفسها وتحت عينيه

فإذا كان الصالح قد أعد المماليك البحرية ، فلتكن مماليك المنصور قلاوون هي المماليك البرجية ،

وبدأ قلاوون في مغادرة ذكرياته وأحلامه ليبدأ في تنفيذ مشروعه الكبير ، التي كان يخشي فشله بلا شك ، وسط أعداء النجاح المتربصون دائماً بميلاد أي فكرة أو مشروع جديد

ولكن من هؤلاء بالنسبة له ؟

إن من تبقي بالنسبة له مجرد صبية صغار ، فهو من جيل آخر ، جيل تربي في مدرسة الصالح ، جيل معركة المنصورة ،

فبعد أن انتهت معركة المنصورة لو شاهدت القتلي لقلت لا يوجد أسري من كثرتهم ، ولو شاهدت الأسري لقلت لا يوجد قتلي من كثرتهم ، إنه أقوي جيش في أوروبا كلها في ذلك الوقت جيش الملك لويس التاسع أسير دار القاضي بن لقمان بالمنصورة

وبدأ قلاوون العمل ، واهتم غاية الاهتمام ، حتي أن المقريزي رحمه الله أحد أكبر مؤرخي العصر المملوكي قد كتب فيما بعد بإعجاب عن مدي اهتمام قلاوون رحمه الله وبعض أولاده من بعده اهتمام كبير بالمماليك البرجية ووصف بانبهار برنامج الإعداد الذي حرص قلاوون أن يكون مشابهاً لما كان عليه برنامج إعداد المماليك البحرية في عهد الصالح

حيث كتب يقول :

وكانت الملوك تعني بها غاية العناية ، حتي أن الملك المنصور قلاوون كان يخرج في غالب أوقاته إلي الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليه ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته فمتي رأي فيه عيباً اشتد علي المشرف والاستادار ونهرهما وحل بهما منه أي مكروه وكانت المماليك أبداً تقيم بهذه الطباق لا تبرح فيها ،

ويضيف المقريزي فيقول : فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة في النهار ولا يبيتوا إلا بها ، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها ، ثم إنه الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلي الحمام يوماً في الأسبوع فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ثم يعودون آخر نهارهم ولم يزل هذا حالهم إلي أن انقرضت أيام بني قلاوون ، وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة :

أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه علي السلطان ونزله في طبقة جنسه وسلمه لطواشي برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالي ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار ،

وكان الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار ، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه وأقرأه فيه مقدمه ، فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وإذا ركبوا إلي لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم ، فينقل إذن إلي الخدمة ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلي أن يصير من الأمراء ،

فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن علي ركوب الخيل ،

ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر هذا ولهم أزمة من الخدام وأكابر من رؤوس النوب :

يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه علي حركاته وسكناته فإن عثر أحد من مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو الطواشي الذي هو مسلم إليه أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه ، علي أنه اقترف ذنباً أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا قابله علي ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه ،

فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار وتعدي ، وكانت لهم الإدارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعاليم من الذهب والفضة بحيث تتسع أحوال غلمانهم ويفيض عطاؤهم علي من قصدهم

ولعلك لاحظت مدي تشابه برنامج إعداد مماليك المنصور قلاوون ببرامج إعداد مماليك الصالح نجم الدين أيوب ، وإن لم تستمر هذه البرامج بنفس الأسلوب وإلا لبقيت دولة المماليك ولما انهارت بعد ذلك مع انهيار برامج الإعداد

وهكذا اهتم قلاوون بمماليكه وأوصي أولاده بالاهتمام بهم ، ووضع الأسس والقواعد التي دامت ما شاء الله لها أن تدوم

وكان قلاوون يشعر بحجم المسئولية الملقاة علي عاتقه بتوليه عرش مصر ، فلم تعد مصر ولاية عادية كما كانت ، بل أصبحت مقر الخلافة العباسية والسلطنة المملوكية والحارس الأول لمقدسات الأمة الإسلامية ، كما أنها في عصر المماليك تحولت إلي قبلة للعلماء والباحثين

وقد كان قلاوون كغيره من سلاطين المماليك البحرية يدرك تماماً أهمية العلم في بناء الحضارة ومن ثم بناء القوة والمجد

## العلم هو سبب الازدهار والحضارة :

هكذا أيقن سلاطين المماليك أن العلم يبني الإنسان والإنسان يصنع الحضارة ، وهذا باختصار شديد ما حدث في عصر المماليك البحرية ، فاهتمامهم بالعلم ورعايتهم للعلماء وكثرة المدارس في عهدهم كل هذا قد ساهم في بناء الإنسان وبالتالي ازدهر كل شئ علي يد الإنسان في جميع المجالات (صناعة ، تجارة ، زراعة ، بناء ) ، وأياً ما كان أسباب ودوافع المماليك للاهتمام بالعلم والعلماء فإن هذا ما حدث بل هو ثابت في العديد من كتب التاريخ التي تتناول ذلك العصر ، وقد أكد من كتب عن عصر المماليك من المؤرخين أن القاهرة كانت في عصر

دولة المماليك دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية ازدهاراً بالبحث والدرس وحملت وحدها مشعل الثقافة العربية الإسلامية وحافظت عليها من خطر الضياع

بعد أن ذوت مراكز العلم والتنوير في معظم البلاد الإسلامية ، خاصة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول وتدميرهم لكنوز المخطوطات، وتعرض قرطبة في الأندلس لحركة الاسترداد الأوروبية وإلحاق الضرر ببلاد الشام علي أيدي الصليبيين والمغول جميعاً

واستقبلت مصر العلماء والباحثين والطلبة من كل مكان لينهلوا من مراكز العلم بها ، وفي العصر المملوكي زاد عدد المدارس زيادة كبيرة ، ومن المؤكد أن العلم والعلماء يحتاجون إلي قوة راعية لنشاطهم العلمي ولا يمكن أن تقوم حضارة بدون علم ولا يمكن أن يتحقق العلم إلا في وجود قوة ترعاه وأموال تُنفق عليه

القوة الوحيدة الراعية للعلم :

ومن المؤكد أن السلطان قلاوون وباقي سلاطين المماليك كانوا يدركون أنهم في فترة من فترات التاريخ هم القوة الوحيدة في العالم الإسلامي وكانوا يحترمون العلم والعلماء وبالتالي هرول إليهم أهل العلم بعد ضعف العباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس ،

ولم يقتصر اهتمام سلاطين المماليك بالعلم فقط بل كانوا رعاة الفنون أيضاً فعلي الرغم من أن المماليك كانوا طبقة حاكمة تميل إلي البطش والقسوة والقوة إلا أنهم كانوا رعاة للفنون التي لم تشهد لها مصر مثيلاً منذ عصر البطالمة ، وتمتعوا بذوق راق وحب للفنون فملأوا سماء القاهرة بالتحف الهندسية الرائعة ولازالت القاهرة تزخر بالمساجد والمدارس والقباب والخوانق والأضرحة والقصور والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها من التحف المعمارية، وقد عني سلاطين المماليك وأمرائهم عناية تامة منذ قيام دولتهم بتشييد المنشآت العامة حتي كاد يخطئها العد

أما الحياة الفكرية والأدبية في عهد سلاطين المماليك البحرية فحدث ولا حرج ، فقد بلغت الحياة الفكرية والأدبية في مصر الإسلامية ذروة النضج والازدهار في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ففي هذين القرنين تحتشد أعظم جمهرة من العلماء والكتاب من كل فن وضرب وفيها تغص القاهرة بأكابر العلماء الوافدين عليها من المشرق والمغرب ، تجتذبهم نهضتها الفكرية ، وأزهرها التالد ، وبلاطها المستنير ، حامي الآداب والعلوم ،

ويمتاز القرن الثامن في مصر بظاهرة فكرية خاصة ، وهي أنه عصر الموسوعات العلمية والفنون المعروفة يومئذ ، في مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل وكتبت في عدة موسوعات جليلة ، مازالت تتبوأ مقامها الفذ في تراث الأدب العربي ، وأشهر هؤلاء العلماء الموسوعيين أحمد ابن عبد الوهاب النويري المتوفي سنة 1332 م صاحب كتاب " نهاية

الأرب في فنون الأدب " وأحمد ابن فضل الله العمري المتوفي سنة 1348 م صاحب كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار وأبو العباس القلقشندى المتوفي سنة 1418 م صاحب كتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشاء

وإنه لمن التجاوز والتواضع أن نسمي هذه المؤلفات المدهشة كتباً ، فهي في الواقع موسوعات ضخمة شاسعة لا تدل أسماؤها علي حقيقة محتوياتها

وقد كان قلاوون وغيره من سلاطين المماليك يعلم أن رعاية العلم تحتاج إلي اقتصاد قوي فمما لا شك فيه أن كل هذا النشاط العلمي كما يحتاج إلي قوة ترعاه ، فلابد له من أموال تنفق بسخاء علي البحث العلمي وترعاه ولذلك اهتم المماليك بالحياة الاقتصادية ومما أكده المؤرخون أيضاً عن ذلك العصر اهتمام سلاطين المماليك بالزراعة باعتبارها مصدر الثروة الأول الذي عاش عليه المصريون في مختلف العصور ، ولذلك عني سلاطين المماليك بحفر الترع وإقامة الجسور حرصاً علي وصول المياه إلي أراضي لم تصل إليها من قبل مما زاد في رقعة الأراضي الصالحة للزراعة وبالتالي كثرة الغلات والخيرات وللزراعة والري وضع خاص في تاريخ مصر

ولقد كانت أحلام قلاوون لمصر وللأمة كلها تفوق الخيال ، وما لم يتحقق في عهده قد تحقق في عهد أولاده ، فاستكملوا رحلته وحصدوا ثمار ما زرعه ، وأفضل دليل علي ذلك ما شاهده الرحالة الشهير ابن بطوطة عندما زار مصر في عصر المماليك البحرية وتحديداً في عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون وهذا السلطان تحديداً كان عهده عهد استقرار ورخاء . فقد جاء بعد رحلة كفاح طويلة ضد التتار والصليبيين وأصبح هناك هدوء نسبي يسود الأمة وراحة من الحروب الكثيرة الناجحة ، ويعتبر عهد الملك الناصر محمد من أفضل عصور سلاطين المماليك إن لم يكن أفضلها علي الإطلاق ، لقد استطاع هذا السلطان أن يحقق أحلام أبيه وخاصة فيما يتعلق بإقامة العدل وتحقيق الحياة الكريمة والرفاهية للشعب

وابن بطوطة لمن لا يعرف هو محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بَطُّوطَة وُلِد سنة 1304 بطنجة وهو رحالة ومؤرخ وقاض وفقيه مغربي لقب بأمير الرحالين المسلمين .خرج من طنجة سنة 725 هـ فطاف بلاد المغرب ومصر والسودان والشام والحجاز وتهامة والعراق وفارس واليمن وعمان والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين الجاوة وبلاد التتار وأواسط أفريقيا .وإتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم وعاد إلى المغرب الأقصى، فانقطع إلى السلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين) فأقام في بلاده. وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس سنة 756هـ وسماها تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . ترجمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنجليزية،

ونشرت بها، وترجم فصول منها إلى الألمانية نشرت أيضا. كان يحسن التركية والفارسية . واستغرقت رحلته 27 سنة ومات في مراكش سنة779هـ -1377م حيث يوجد ضريحه بالمدينة القديمة. تلقبه جامعة كامبريدج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالة المسلمين الوطنيين ولابن بطوطة قصة طريفة تستحق أن نرويها في سياق حديثنا عن أحلام المنصور قلاوون الألفي فقد شاهد ابن بطوطة أحلام قلاوون وقد تحققت بالفعل وأصبحت واقع ملموس في عهد ابنه الناصر محمد ،

فقد تعجب المؤرخون من قيام ابن بطوطة رحمه الله برحلاته في العالم الإسلامي بقليل من المال ويجيب الدكتور حسين مؤنس علي هذا السؤال كالآتي : ( وقد ذكرنا أن ابن بطوطة خرج لرحلته بمال قليل ، فكيف استطاع أن يقوم بهذه الرحلات الطويلة وهو لم يكن بتاجر يبيع ويشتري ويسد نفقات الرحلة علي الطريق ؟

الجواب علي هذا السؤال يكشف عن ناحية من أجمل نواحي الحضارة الإسلامية ، وهي ناحية ترابط الأمة وتآخيها وتعاون أفرادها بعضهم مع بعض ، واجتهادهم في المحافظة علي وحدة أمتهم وسلامة دار الإسلام ، ذلك أنه كان هناك دائماً عالمان إسلاميان :

عالم السياسة ، وكله خلافات وحروب ومكايد ،

وعالم الأمة نفسها ، وهي وحدة متماسكة مترابطة كما ذكرنا

فهذا الرجل قطع العالم الإسلامي كله من المغرب إلي اندونيسيا ، دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ووجد في كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام ، لا علي سبيل التكرم والتفضل بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة وقامت علي رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة ، وقد فعلت الأمة ذلك تنفيذاً لما نص عليه القرآن الكريم مرة بعد مرة من رعاية ابن السبيل وإكرامه وإطعامه ، وابن السبيل هو المسلم الغريب عن وطنه ، وقد أحصيت ست آيات علي الأقل في القرآن الكريم أوصي الله سبحانه فيها المسلمين بابن السبيل ، وجعل له نصيباً في أموال الناس ، لهذا حرصت الأمة وهي القيِّمة الحقيقية علي الدين علي تنفيذ هذا التوجيه القرآني العظيم ، فأقامت الزوايا والربط ودور الضيافة في كل مكان ورحلة ابن بطوطة أكبر دليل علي ذلك

وقد وصف ابن بطوطة الملك الناصر محمد بن قلاوون بأن له سيرة كريمة وفضائل عظيمة فقال :

( وكفاه شرفاً انتماءه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء )

ولم يكتف ابن بطوطة بوصف الملك فقط بل كتب أيضاً عن الخليفة :

( لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله في أرضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسني له الفتح المبين )

وقد انبهر ابن بطوطة بمصر بلا شك فقد كانت مركز للحضارة والعلم ووصفها بقوله :

( هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ومحط الضعيف والقادر ، تموج موج البحر بسكانها ، قهرت قاهرتها الأمم وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم ، كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة ، ويقال أن بمصر من السقائين علي الجمال اثني عشر ألف سقاء ، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً ، تمر صاعدة إلي الصعيد منحدرة إلي الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات ،

وعلي ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة ، وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها وأما المارستان الذي بين القصرين ، فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ، والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة للفقراء )

وإذا حاولنا أن نستخرج ما نحتاج إليه من كلام ابن بطوطة سنجد أنه يصف المنافسه بين الأمراء ولكنه لا يشير إطلاقاً إلي الصراع علي السلطة وهذا قد يعني أنه رأي من الجمال والروعة ما أنساه ذلك الصراع أو أنه قد حضر في وقت لم تكن فيه فتن وصراعات ، وما يلفت النظر أيضاً في كلام ابن بطوطة جملة في منتهي الروعة حيث قال :

كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة فهي جملة لا شك قد شعر بها قبل أن يكتبها والسؤال هنا : هل يمكن أن تكون مؤنسة له ولذوي الغربة ولا تكون كذلك لأهلها وشعبها ؟ ، ولا ننسي أنه وصف بدقة المارستان الذي شيده بطل قصتنا المنصور قلاوون

ولكن أكثر ما يدهش في كلام ابن بطوطة هو حديثه عن المدارس حيث ذكر أنه لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ، رغم أنه استطاع أن يعرف من المصريين عدد السفن والمراكب في النيل فما هو الشئ الأسهل في الحصر والعد المراكب أم المدارس ؟ وقد يكون كلامه له صيغة المبالغة بالطبع من كثرة ما شاهد من المدارس ، وعلي كل حال فمن الواضح بل المؤكد ان المماليك في ذلك الوقت كانوا رعاة للعلم والعلماء وللفن والفنون

## قلاوون وأنبل الصفات

ولنعود مرة أخري لبطل قصتنا قلاوون وأحلامه والذي أجمع المؤرِّخُون على وصفه بأطيب الصفات وأنبلها، ولعلَّ من أبلغ هذه الأوصاف ما قاله بيبرس المنصوري:

«كان حليمًا عفيفًا في سفك الدماء، مقتصدًا في العقاب، كارهًا للأذى».

غير أن قلاوون لم يَسْلَمْ من اعتراض كبار أمراء المماليك على تولّيه الحُكم، وكان بعضهم يرى نفسه أحقَّ بالسلطنة منه؛ فَهُمْ على درجات متقاربة من القوَّة والنفوذ، لكنَّ قلاوون نجح -بالقوَّة أحيانًا وبالسياسة أحيانًا أخرى- في أن يُمسك بزمام الأمور، ويقضي على الثورات التي قامت في وجهه.

ونجح قلاوون في استمالة قلوب الناس إليه؛ لرأفته ولينه، وميله إلى رفع ما يزيد من معاناتهم، فألغى كثيرًا من الضرائب التي كانت تُفرض على الناس، وأبطل كثيرًا من المظالم التي عانى الشعب منها.

ويذكر التاريخ للسلطان قلاوون ما قام به من إنشاءات عظيمة ارتبطت بها نهضة علمية ونشاط وافر؛ فأقام عددًا من المدارس التي امتلأت بالشيوخ وطلبة العلم، وفي مُقَدِّمَتِهَا المدرسة المنصورية، التي أوقفها لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة، وكان يتولَّى التدريس بها كبار الأئمة وأعيان الفقهاء والمُحَدِّثين. وتتضمَّن حُجَّة الوقف التي كتبها قلاوون إشارات كثيرة تتعلَّق بتنظيم العملية التعليمية داخل المدرسة؛ وذلك من حيث مقرِّ الدراسة، وجلوس أهل المذاهب الأربعة بها، وأماكن سكن المدرِّسين الفقهاء وأجورهم ورواتبهم.. وغير ذلك من الشروط، وتُعَدُّ المدرسة من أروع المدارس المملوكية التي شُيِّدت بالقاهرة لعمارتها الراقية، وزخارفها الرائعة.

ولم تكن القبة المنصورية التي أقامها لتكون مدفنًا له مقصورة على هذا الغرض؛ بل جعل منها مدرسة ومسجدًا، ورتَّب بها خمسين مقرئًا؛ يقرءون القرآن ليلاً ونهارًا، وخصَّص لها إمامًا للصلاة، وعالمًا لتفسير القرآن للطلاب الذين يؤمون القبة، وجعل بها خزانة للكتب، وخازنًا يقوم بأمرها، وهذه القبة من أجمل القباب الباقية بمدينة القاهرة. ومن أفضل إنشاءات المنصور قلاوون كما ذكرنا البيمارستان (المستشفي) الذي أقامه لتقديم الرعاية الصحية والاجتماعية للمرضى، وافتتحه السلطان في حفل كبير شارك فيه الأمراء والقضاة والعلماء، وتضمَّنَتْ حُجَّة وقف هذا الصرح الطبي أنه مفتوح طوال اليوم لتقديم العلاج للمرضى؛ دون نظر إلى طبقاتهم أو جنسياتهم، ودون مقابل أو أجر.

ولم يقتصر دور البيمارستان على تقديم العلاج، بل تعدَّاه إلى تدريس الطبِّ للطلَّاب، وهو ما يُشبه الآن المستشفيات التعليمية التابعة لكليات الطبِّ؛ حيث يُتاح للطلَّاب ممارسة الطبِّ تحت إشراف أساتذتهم.

ولم يبقَ من منشآت قلاوون الكثيرة سوى المجموعة المعمارية التي تتضمَّن القبة والمسجد والبيمارستان؛ وهي شاهدة على ما بلغته الدولة المملوكية من تقدُّم وازدهار شمل مناحي الحياة كلها.

## الأحلام الوردية لا تخلو من كوابيس مزعجة

وكما شاركنا قلاوون أحلامه الوردية ، وسبحنا معه في بحارها الرائقة وأنهارها العذبة ، لابد لنا أن نشاركه كوابيسه المزعجة ،

ولقد بدأت قصة الكابوس الأول مع بداية سلطنة قلاوون ، عندما رفض والي الشام سلطنة قلاوون من الأساس ، ورفض الاعتراف به كسلطان

وكان هذا الوالي هو الْأَمِيرُ شَمْسُ الدِّينِ سُنْقُر الْأَشْقَرُ وهو أمير مملوكي عُيِّن نائب السلطنة على الشام في عهد السلطان الملك العادل سَلَامُش سنة 1279م ابن الظاهر بيبرس خلفاً لنائبها الْأَمِيرُ أَيْدَمُر. وعندما خُلِغ السلطان الملك العادل سَلَامُش وصارت السلطنة للأمير الْمَنْصُور قَلَاوُونَ الألفي الصَّالِحِي، امتنع الأمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ سُنْقُرَ الْأَشْقَر عن بيعته لعدم رضاه عنه وربما لأنه كان يَرَى أَنَّهُ أَعظم منه عِندالملك الظَّاهِر بيبرس

ثم مالبث بعد عدة شهور من نفس العام 1280م أن أعلن سُنْقُرَ الْأَشْقَر نفسه سلطاناً على دمشق مستقلا عن السلطان في القاهرة ولُقّب بالملك الكامل.

فإذا كان قلاوون قد لقب نفسه بالمنصور في القاهرة فسنقر قد لقب نفسه بالكامل في دمشق وكلاهما صالحي ، فاسمه سُنْقُر بن عبد الله التركي الصالحي النجمي،

ولسنقر هذا قصة خاصة به فقد كان أيضاً من كبار المماليك البحرية وخشداش الملك الظاهر بيبرس .أخذه ملك من بقايا البيت الأيوبي في الشام وهو الناصر يوسف الأيوبي وسجنه بحلب، وعندما احتل هولاكو حلب وجده بالحبس فأنعم عليه وصيره أميراً عنده، وعندما استلم الظاهر بيبرس الحكم سعى إلى تخليص سُنقر من أيدي التتار، وعندما وقع ملك سيس في أسر الظاهر، وكانت مملكة سيس الأرمنية متحالفة مع المغول، طلب الظاهر بيبرس من ملك سيس مقابل إطلاق سراح ابنه أن يستخدم علاقته مع هولاكو لاستعادة سُنقر. وكان له ما أراد وأُطلق سراح سُنقر واستقبله بيبرس وأكرمه. فقد كانت علاقة بيبرس بسنقر علاقة قوية قد ترقي لعلاقة قلاوون ببيبرس أو تزيد ، لذلك رفض سنقر سلطنة قلاوون

وخير وصف لما حدث لقلاوون مع بداية تولية السلطنة هو ما كتبه ابن تغري بردي رحمه الله حيث قال عنه :

ولما استقل بالمملكة أمسك جماعة كثيرة من المماليك والأمراء الظاهرية وغيرهم ، واستعمل مماليكه علي البلاد والقلاع ، فلم يبلع ريقه حتي خرج عليه الأمير شمس الدين سُنقُر الأشقر

نائب دمشق ، فإنه لما وصل إليه البريد إلي دمشق بسلطنة المنصور قلاوون وعلي يده نسخة يمين التحليف للأمراء والجند وأرباب الدولة وأعيان الناس فأُحضروا إلي دار السعادة بدمشق وهي مقر نائب السلطان بدمشق ، وحلفوا إلا سُنقُر الأشقر نائب الشام ، فإنه لم يحلف ولا رَضِي بما جري من خلع سلامش وسلطنة قلاوون ، فلم يلتفت أهل دمشق إلي كلامه ، وخُطِب بجامع دمشق للملك المنصور قلاوون وجوامع الشام بأسرها خلا مواقع يسيرة توقفوا ، ثم خطبوا بعد ذلك ،

أما مسألة حلف اليمين فلها قصة في العصر المملوكي تنم عن غلبة النزعة الدينية لدي المماليك ، فهي أحد الأمثلة علي ميولهم الدينية ،

## حلف اليمين والنزعة الدينية لدي المماليك

فالنزعة الدينية تعتبر القاسم المشترك الأعظم لجميع المماليك علي اختلاف أنواعهم وظروف نشأتهم فالعقيدة الدينية من الثوابت الراسخة لديهم جميعاً تقريباً فنكاد نلمحها في تصرفاتهم وفي عمائرهم وحتي في صراعاتهم علي السلطة فكل منهم كان حريص علي أن يستمد شرعيته في الحكم من منظور ديني ، فنجد مثلاً أن المماليك عندما تولوا الحكم كملوك وسلاطين لا يطمئن أحدهم إلا إذا تم تقليده السلطنة في حضور الخليفة والقضاة الأربعة ومباركتهم ،

كما نلاحظ أيضاً هذه النزعة الدينية عندما نقرأ في كتب التاريخ أن كثيراً منهم بعد أن يتولي الحكم ويصبح سلطاناً يقوم باستدعاء كبار رجال دولته والأمراء ليحلفون له بالأيمانات المؤكدة علي عدم الغدر به أو التآمر علي خلعه من السلطنة ، وبغض النظر عن مدي صدق هذه الأيمانات إلا أنها مؤشر يوضح تأثير الدين في سلوكياتهم ،

بل إن من أوضح الأمثلة علي توغل هذه المشاعر والعقائد في نفوسهم النذور التي كانوا ينذرونها إذا كانوا في ضيق أثناء صراعاتهم وقد سجل المؤرخون أمثلة علي بعض هذه النذور ومن أشهرها نذر الملك المؤيد شيخ المحمودي الذي كان مسجوناً في سجن من أبشع السجون في ذلك الوقت والذي كان يسمي خزانة شمايل بجوار باب زويلة حيث نذر نذراً وقام بالوفاء به بالفعل بعد أن تولي السلطنة حيث قام ببناء مسجده الشهير الموجود إلي الآن في نفس موضع السجن الذي كان مسجوناً فيه ، أما الصراع علي السلطة نفسه فكانوا يطلقون عليه كلمة (فتنة) وأثناء حدوث إحدي هذه الفتن اختفي الأمير لاجين المنصوري داخل مئذنة جامع ابن طولون لفترة حتي انتهاء هذه الفتنة ، وكان هذا الجامع الضخم خرباً ومهجوراً في ذلك الوقت ولا تقام فيه الشعائر فأخذ الأمير لاجين علي نفسه عهداً ونذر نذراً أن يعمر هذا الجامع ويرممه إذا انتهت هذه الفتنة بسلام ووصل للسلطة وقد كان ، فعندما صار ملكاً علي

مصر قام بالوفاء بهذا النذر ، وليس أدل علي تمكن الدين من المماليك كدليل العمائر الإسلامية ، فقد كانوا يتنافسون فيما بينهم علي بناء الأسبلة والتكيات والمدارس والمساجد والخوانق والكتاتيب ويوقفون عليها الأوقاف لتستمر بعد وفاتهم ، بل إن من الأمثلة الطريفة التي تؤكد لجوءهم وتضرعهم إلي الله سبحانه وتعالي وهم في قمة الضعف الإنساني عندما يمرض أحدهم مرضاً شديداً يقوم باختيار أفضل فرس لديه من خيوله – وما أدراك ما الخيول بالنسبة لهم – ويرسله ليُعْرَض للبيع ويتصدق بثمنه كاملاً من منطلق ما ورد في الأثر الشريف (داووا مرضاكم بالصدقة) فإلي هذا الحد كان اعتقادهم ويقينهم وتوكلهم ،

ونعود مرة أخري لنستكمل معرفة ما كتبه ابن تغري بردي حيث استطرد يقول : وأما سنقر الأشقر فإنه في يوم الجمعة الرابع عشر من ذي القعدة من السنة ركب من دار السعادة بدمشق بعد صلاة العصر ومعه جماعة من الأمراء والجند وقصد قلعة دمشق وهاجمها بمن كان معه ، وطلعها وجلس بها من ساعته وحلَّف الأمراء والجند ومن حضر وتسلطن وتلقب بالملك الكامل ، ونادت المنادية في المدينة بسلطنته واستقلاله بالمماليك الشامية ، وفي بُكرة يوم السبت خامس عشرين ذي القعدة طلب القضاة والعلماء ورؤساء البلد وأكابره وأعيانه إلي مسجد أبي الدرداء رضي الله عنه ، بقلعة دمشق وحلَّفهم وحلَّف بقية الناس علي طاعته ، ثم وجَّه العساكر في يوم الأربعاء تاسع عشرينه إلي بلاد غزة لحفظ البلاد ومغلّها ودفع من يأتي إليها من الديار المصرية ، وخرجت سنة ثمانٍ وسبعين وليس للملك المنصور قلاوون حكم إلا علي الديار المصرية وأعمالها فقط

## لقاء قلاوون بالأمير علم الدين سنجر الحلبي

وعند سماع قلاوون بما قام به سُنْقُر الْأَشْقَر أرسل في طلب الأمير علم الدين سنجر الحلبي وأمره أن يخرج علي رأس جيش إلي الشام ليقضي علي التمرد هناك ، وقال له :

- أريدك أن تشيع بين الناس أن الباب مفتوح للعودة لمن يريد وله الأمان
- ولكنني متوجه للقتال يا مولاي
- نعم ولكن هناك من سيأتيك إذا عرف أن له الأمان إذا كف عن القتال ، فمن جاءك فلا تعاتبه علي التأخير ، وهذا سينهي تردد الكثيرين في اتخاذ قرار التوجه إليك ، لأن هناك من يكره من يخاطبه بحده ويلومه بشدة فلا يعود للحق كبراً وأنفة من التعرض لمثل هذا التوبيخ
- ولكن الحسم في القتال سيؤدي إلي نفس النتائج يا مولاي خوفاً من القتل ، والأمر كما تريد علي أي حال يا مولاي

- أنا أفهم ما تعنيه بلا شك ولكنني أريد حقن الدماء بقدر الإمكان ، فأرجو ألّا تسرف في القتل ، فكل ما أريده هو القضاء علي التمرد
- أمرك يا مولاي
- وسوف تجد كما بلغني أنه قد قَدِمَ علي الأشقر وتحالف معه الأمير شرف الدين عيسي بن مهنا ملك العرب بالبلاد الشرقية والشمالية ، وكذلك وصل إليه أيضاً الأمير شهاب الدين أحمد بن حجي بن يزيد ملك العرب بالبلاد الحجازية
- لن يغير ذلك من الموقف شئ بالنسبة لي يا مولاي ، فسوف أسحق جميع من خرج عن الطاعة بإذن الله
- ولكن يا علم الدين حاول أن ترسل إليهما لتحييدهما ، وأنه لا شأن لهما بهذا الصراع إن استطعت
- أمرك يا مولاي
- امض علي بركة الله وتذكر أن الأعداء من التتار متربصون بنا وبهم علي السواء

وهكذا لم يدم مُلك الأمير سنقر الأشقر طويلاً حيث هُزم عسكره قرب غزة679 هـ 1280م. وسار بعدها جيش الملك المنصور قلاوُون بقيادة الأمير علم الدين سنجر إلى دمشق ووصلها شهر صفر وتقاتل الفريقان

وقد نجحت بالفعل خطة المنصور قلاوون حيث ترك الكثير من المماليك القتال مع الأمير سنقر الأشقر وانضموا إلي العسكر المصري وتوجه الأمير شهاب الدين أحمد بن حجي بن يزيد إلي دمشق وأعلن دخوله في طاعة السلطان المنصور قلاوون

وهُزم جيش سُنْقُر فهرب إلى البادية في صحبة الأمير شرف الدين عيسي بن مهنا وبهذا عادت دمشق لحكم الملك المنصور قلاوُون وانتهى حكم سُنْقُر فيها.

ومضت جند السلطان قلاوُون إلى البادية في طلب سُنْقُر. فانتقل منها إلى السواحل الشامية،فسيطر فيها على حصون كثيرة ومنها حصن شَيْزَر .فأرسل السلطان قلاوُون جيشاً لحصار شيزر، وبينما هم كذلك اجتاحت جيوش التتار بلاد الشام واحتل التتار حلب 679هـ 1280م ، ومما شجع التتار علي الحضور ما وصل إليهم من أخبار عن انشقاق الصف بين المسلمين وخروج أحد الأمراء علي سلطانهم ، وقيامهم بقتال بعضهم بعض

## قدوم التتار أثناء الصراع بين قلاوون وسنقر

في السابع والعشرين من جُمَادَى الآخرة (680هـ= 1281م) وصل الخبر بقدوم منكوتمر بن هولاكو بجيشه إلى عنتاب، فخرج إليه السلطان المنصور قلاوون بنفسه وعسكر في حمص، وبوصول قلاوون إلي حمص تذكر بشري الملك الصالح بالنصر في حمص

فأرسل قلاؤون إلى سُنقر يطلب منه الاتفاق على قتال التتار لما فيه مصلحة المسلمين فأجابه سُنقر بالسمع والطاعة.

وهو ما كان يتوقعه قلاوون ، فليس من الطبيعي أن يرفض أي أمير اتحاد الكلمة في مواجهة العدو المشترك ، فلقد كانت هذه طبيعة الأمة الإسلامية

وحضر الأمير سنقر الأشقر وقوَّاته، ودخل التتار حماة فخرَّبوا فيها كعادتهم وقتلوا كل من وصلت إليه أيديهم ،

ثم وصلوا إلى حمص حيث التقى الجمعان في موقعة حمص في (14 من رجب 680 هـ=30 من أكتوبر 1281م)؛ حيث اضطربت ميمنة المسلمين في البداية، ثم الميسرة، وثبت السلطان ومَنْ معه ثباتًا عظيمًا؛

كان قلاوون يدرك تماماً تأثير ثباته في المعركة علي جميع المقاتلين

فدائماً تنعكس شجاعة القائد علي مقاتليه ، فهو رمانة الميزان ترنوا إليه الأبصار وتتعلق به الآمال ، فتجدهم يتابعون تحركاته وإشاراته ونشاطه وسكونه صيحاته وصمته ، فهو بالنسبة لهم تجسيد لوضعهم في المعركة

فكل التفاته منه أو صيحة تلهب الحماس وتشحذ الهمم ، وتحفز علي التقدم والقتال

لقد قام قلاوون في هذه المعركة بكل ما تعلمه من فنون القيادة والقتال وكله ثقة في النصر فانتقلت هذه الثقة إلي عسكره ،

لقد كان قلاوون من القادة المعدودين الذين فرضوا أنفسهم علي كتب التاريخ ، فهو يُعد من أبرز القادة في تاريخ مصر ، الذين قيل عنهم أنهم وضعوا أيديهم علي مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسرها وجعلت منهم حكاماً يلهج بذكرهم التاريخ

فإذا ابتعد المسافر عن مدينة أخذت تظهر له من بعيد الأمكنة العالية منها وكلما أوغل في الابتعاد وأمعن في السير صار لا يري إلا أكثر الأمكنة إصعاداً في الجو كذلك الناظر في التاريخ كلما ابتعدت به قافلة الزمن لا يلمح إلا الشخصيات البارزة

فكان قلاوون من هؤلاء القادة البارزين في تاريخ مصر

ولمع وبرزت مواهبه في حمص وغيرها من المعارك ، فاقتحم صفوف التتار بشجاعة منقطعة مما حمل الأمراء والقادة على الانقضاض على التتار وكسروهم كسرة عظيمة، وجرحوا ملكهم، وقتلوا منهم الكثير، وكانت مقتلة تفوق الوصف،

وانتهت المعركة بانتصار المسلمين انتصارًا مظفَّرًا، ودخل السلطان المنصور دمشق في أُبَّهة النصر في شعبان، وبين يديه الأسرى حاملين رءوس قتلاهم على الرماح،

وزينت المدينة وابتهج الناس

**ووصل خبر الانتصار إلي القاهرة فعمت الفرحة الجميع**

**واستمر العداء بين المغول والمماليك وتربص كل منهم بالآخر**

**ثم تحسَّنت العلاقات نسبيًّا بين دولة المغول والمماليك بعد أن تولَّى الحكم تكودار بن هولاكو خلفًا لأخيه أبغا، وأعلن إسلامه، وكان شديد الرغبة في إقامة علاقات ودِّيَّة مع المماليك، لكنَّ هذا التحسُّن لم يدم طويلاً؛ فسرعان ما أطاح به وبآماله «أرغون» ابن أخيه عن حُكْم المغول، وعاد التوتُّر بين الدولتين من جديد، دون أن يحسم قلاوون أمره مع المغول، فظلُّوا خطرًا محدقًا بدولته، وإن نجح في كبح جماح هذا الخطر.**

## جهاد المنصور قلاوون ضد الصليبيين

**كان حلم قلاوون الأكبر أن يحرر الشام بالكامل من الصليبيين فلم يصبر قلاوون على انتهاء المعاهدة التي عقدها مع الصليبيين، وكانوا لا يزالون خطرًا على الدولة، يحتلُّون أجزاءً من أراضيها، ولا يحترمون عهدًا ولا ذمَّة إذا ما سنحت لهم فرصة، أو اشتدَّت بهم قوَّة، فهاجم قلاوون حصن المرقب، وهو من أمنع الحصون الصليبية في الشام؛ وذلك في سنة (684هـ- 1285م)، ونجح في الاستيلاء عليه،**

**ولم يبقَ للصليبيين من إماراتهم سوى طرابلس التي يحكمها أمراء النورمان، وعكا التي أصبحت مقرَّ مملكة بيت المقدس، بالإضافة إلى بعض الحصون؛ مثل حصني المَرْقَب وطَرَسُوس.**

**ولم تكن الجبهة الصليبية متماسكة البناء؛ بل كانت الخلافات تَفْتِكُ بها، فوجد قلاوون في ذلك فرصة سانحة للانقضاض على الإمارات الصليبية المتبقِّية، فأرسل حملة عسكرية تمكَّنت من الاستيلاء على اللاذقية سنة (686هـ- 1287م)، وبعد سنتين خرج السلطانُ بنفسه إلى طرابلس على رأس قوَّة كبيرة قوامها أكثر من أربعين ألف جندي، وحاصرها أربعة وثلاثين يومًا استسلمت بعدها في ربيع الآخر 688 هـ- أبريل 1289م، وعلى إثرها سقطت المدن الأخرى المجاورة؛ مثل: بيروت، وجبلة، وانحصر الوجود الصليبي في عكا وصيدا وصور وغيليت، بعد أن كانت الممالك الصليبية تمتدُّ على طول الساحل الشامي للبحر المتوسط،**

## قلاوون يوصي ابنه خليل

**كان قلاوون يعد العدة لتحرير عكا ليتحقق جلاء آخر جندي صليبي عن بلاد المسلمين ، ولكنه شعر بالمرض يتمكن منه فقرر تأجيل الخروج للقتال إلي أن يتعافي ، وشعر أنه سيصبح في صحة أفضل بعد أن يستريح فيستكمل الاستعداد للسفر في اليوم التالي ، وحضر ابنه الأشرف خليل لعيادته والاطمئنان عليه فتحدث إليه قائلاً :**

- إنني أشعر باقتراب النهاية يا بني
- أطال الله بقاءك يا مولاي
- كم كنت أتمني تحرير عكا
- ستفعل يا سيدي إن شاء الله وسيكون ذلك علي يديك
- علي أي حال أريدك أن تستكمل الرحلة يا بني فقد بدأت من عهد القائد العظيم عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود والناصر صلاح الدين كما أخبرنا شيخنا ونحن غلمان في جزيرة الروضة
- وهل قص عليكم تاريخ الحروب الصليبية كلها يا أبتي ؟
- أجل فهي محفورة في ذاكرة كل مملوك من المماليك البحرية
- حقاً يا أبي لابد لنا أن نعرف تاريخنا جيداً ، فإذا نحن اعتبرنا الحياة طريقاً يقطعه الإنسان ، فلا شك في أن معرفتنا بما قطعناه من الطريق يعيننا علي قطع ما بقي منه . فهل أخبركم معلمكم يا أبي ماذا كان سبب هذه الحملات المتكررة وكيف بدأت ؟

**<u>قلاوون يروي تاريخ الدولة الأيوبية لولي عهده</u>**

وبدأ قلاوون في سرد القصة منذ البداية بجميع تفاصيلها وكأنه يقرأ من كتاب وفي صباح اليوم التالي شرع في السفر للقتال مع القوات التي أعدها ولكنه لم يتمكن بسبب مرضه وضعف بنيته فقرر تأجيل السفر مرة أخري وهكذا ظل يؤجل السفر يوماً بعد يوم علي أمل تحسن حالته الصحية ، وظل الأطباء يعالجونه وأولاده يرافقونه ويستمعون لما يروي لهم من قصص تاريخية وكان أكثرهم اهتماماً بسماع كل هذا ولي العهد الأشرف خليل الذي طلب من والده أن يروي له قصة الحروب الصليبية وكيف بدأت فكان يروي له كل يوم بعض منها بقدر ما تسمح به حالته الصحية وبدأ الكلام بقوله :

- أصل الغزو الصليبي للأمة الإسلامية يا بني يعود إلي سنة 488 هـ - 1095 م حيث تم عقد مجمع كلير مونت بإقليم أوفيرون بفرنسا بواسطة البابا أوربان الثاني وفي هذه الأوقات كانت الكنيسة في أوروبا مسيطرة علي الأمور بشكل غير عادي وكانت هناك حروب طاحنة بين الأمراء المسيحيين فقررت الكنيسة أن تشغل هؤلاء الأمراء عن حروبهم بعضهم لبعض بحرب مقدسة من أجل الصليب - وكانت البابوية في الغرب الأوروبي قد ارتفع شأنها وصارت لها السيادة علي كل الكنائس الأوروبية بفضل سلسلة من الباباوات الأقوياء فأخذت تشجع أمراء الإقطاع علي نبذ حروبهم الداخلية وتوجيهها ضد المسلمين بغية إشباع نزعتهم القتالية ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب

- يقاتلوننا لمجرد إشباع نزعتهم القتالية يا له من سبب عجيب أريقت دماء كثيرة من أجله ولكن ألم تكن هناك أسباب أخري يا أبي
- بلي يا بني فقد رحبت المدن التجارية الإيطالية مثل بيزا والبندقية وجنوة بالحروب الصليبية لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة كانت تراودهم وهي الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها في بلاد الشام وجني الأرباح من وراء ذلك ،
- وهكذا أصبح هناك عدو آخر للأمة بالإضافة إلي الروم أعداءها التقليديين ، فكيف انتهت الدولة الفاطمية تماماً وقامت الدولة الأيوبية يا أبي ؟
- يمكننا أن نبدأ القصة يا بني من بداية التحول الكبير للفاطميين في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله عندما وقع ما يُعرف بالشدة المستنصرية الشهيرة
- نعم يا أبي لقد سمعت عنها أقوالاً كثيرة فماذا حدث فيها بالفعل ؟
- في عهد هذا الخليفة حدث ما يسمي بالشدة المستنصرية في العصر الفاطمي – وكان من مظاهرها الغلاء الشديد وانتشار الأوبئة التي أدت بحياة الألوف في ريف مصر ومدنها واقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والاضطرابات في مصر –، وقال المؤرخون : (ثم وقع في أيام المستنصر بالله الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره وكان أمده سبع سنين وسببه ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء علي الدولة ، واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل – وكان ابتداء ذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة –هجرية – ، فنزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتي تعطلت الأراضي من الزراعة وشمل الخوف ، وخيفت السُبُل براً وبحراً – – وأُكِلت الكلاب والقطط حتي قلت الكلاب فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير وتزايد الحال حتي أكل الناس بعضهم بعضاً وتحرز الناس – – ثم آل الأمر إلي أن باع المستنصر بالله كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس علي حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن : الجوع الجوع تردن المسير إلي العراق فتسقطن عند المصلي وتمتن جوعاً ، واحتاج المستنصر حتي باع حلية قبور آباءه )
- يا لها من شدة شنيعة ، فهل حدثت شدة أخري في العصر الفاطمي يا أبتي ؟
- يذكر المؤرخون أيضاً غلاء وقع في أيام الخليفة الآمر بأحكام الله وغلاء آخر وقع في أيام الحافظ لدين الله وكان الوزير هو الأفضل بن وحش ووقع غلاء في أيام الفائز بوزارة الصالح طلائع بن رزيك ، وقد دفع سوء الأحوال في مصر الخليفة المستنصر بالله إلي استدعاء الوزير بدر الجمالي من فلسطين لإعادة الأمور إلي نصابها– فلما

ولي الوزارة سنة 466 هـ " 1073 م " قضي علي المفسدين وعناصر الشدة فاستقرت الأمور وعاد الرخاء تدريجياً ، وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر – الجمالي – إلي آخر الدولة – الفاطمية – هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، ، ويقول المؤرخون : كانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتكلمين وقل أن وليها أحد بعد الأفضل " الوزير الفاطمي " إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك –

- الصراع كان علي منصب الوزارة دون غيره إذن
- نعم ، وكان أن اخترقت الحملة الصليبية الأولي آسيا الصغري ومنها زحف الصليبيون نحو مدينة بيت المقدس التي كانت خاضعة للفاطميين آنذاك فسقطت في أيديهم في يوم السبت 18 شعبان 492 هـ – 15 يوليو سنة 1099 م وهناك لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الأعمال الوحشية فقتلوا عشرات الألوف من المسلمين أطفالاً ونساءاً ورجالاً وشيوخاً مما ترك أثراً سيئاً عميقاً في جميع أنحاء العالم الإسلامي ولم تمض سنوات قليلة حتي أسس الصليبيون ثلاث إمارات كبري في الرها وانطاكية وطرابلس فضلاً عن مملكة بيت المقدس الصليبية ، وبعبارة أخري ، صار في أيدي الصليبيين الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام وموانيه لتأمين الاتصال البحري بأوروبا الغربية ،
- ولكن كيف تفوق الصليبيون بهذا الشكل يا مولاي ؟
- يعتبر نجاح الصليبيين في تأسيس كيان لهم ببلاد الشام ، لا يرجع إلي تفوق جيوشهم في العدد والعدة ولا إلي كفاءتهم الحربية ، وإنما يرجع أساساً إلي انعدام المقاومة الإسلامية وتراخي المسلمين في الذود عن أراضيهم بسبب تبعثر قواهم وافتقارهم إلي الوحدة والتماسك ، فأمراء السلاجقة لم يكن من بينهم بعد وفاة أعظم سلاطينهم " ملكشاه " سنة 485 هـ " 1092 م" من يستطيع أن يتولي قيادتهم ويوجه جهودهم لقتال الصليبيين ، في الوقت الذي انكمشت فيه الخلافة الفاطمية في مصر ولم تكن في حال يسمح لها بأن تنهض بدور فعال في إنقاذ بلاد الشام من براثن الصليبيين – – وإذا كان من الثابت أن الفاطميين اشتبكوا مع الصليبيين ببلاد الشام ، ولكن الفاطميين ظهروا أمامهم في صورة العاجزين ، وأخفقوا في استرداد بيت المقدس ، وهكذا لم يعد في الأمة الإسلامية قائد يعتمد عليه حتي ظهرت شخصية قوية وهو عماد الدين زنكي ، الذي وضع نصب عينيه أن التغلب علي الصليبيين وطردهم من

بلاد الشام لا يمكن أن يتم إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية وهي المهمة التي بدأها بنفسه وأتمها ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبي

- وماذا حدث بعد ذلك يا أبي ؟
- استمرت مملكة بيت المقدس تحاول الاستيلاء علي مصر إلي أن اتفقت الدولة الفاطمية مع الصليبيين علي دفع جزية قدرها مائة وستون ألف دينار من الفاطميين للصليبيين مقابل عدم غزو مصر ، وكان صراع الوزراء علي السلطة هو الشغل الشاغل في مصر والقتال الدامي
- فكيف انتهي حكم الفاطميين في مصر يا أبي ؟

## حكاية شاور وضرغام في العصر الفاطمي

- في عهد الخليفة العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي يا بني . فقد حدث في عهده أكبر النزاعات علي منصب الوزراة في مصر ودار الصراع بين رجلين مهمين من رجال الدولة وهما " شاور " و " ضرغام " وقد لجأ كل منهما إلي قوة خارجية لتدعم موقفه في الصراع ، أما شاور فقد لجأ إلي نور الدين محمود حاكم الشام القوي ، وطلب منه أن يرسل معه جيشاً إلي مصر ليستعيدها من ضرغام مقابل ثلث إيرادات مصر وأن يدين له بالولاء إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة ، وكان نور الدين محمود علي المذهب السني بالطبع أما شاور وضرغام والفاطميين جميعاً علي المذهب الشيعي الاسماعيلي فقد كانت صفقة غريبة بين طرف شيعي وطرف سني ليس من وراءها إلا الوصول للسلطة بأي أسلوب ،
- هذا عن شاور فإلي من لجأ ضرغام يا أبي ؟
- أما ضرغام يا بني ، فقد لجأ للصليبيين وقوتهم في صراعه مع شاور وكان موقف نور الدين محمود علي ، يؤكد أنه يريد أن يتدخل في مصر بأي اسلوب أو أي صورة كي يتم له مستقبلاً إزالة الفاطميين الشيعة الاسماعيلية من مصر ووجد أن مساعدة شاور في خطته فرصة لوضع يده علي مصر والسيطرة عليها كخطوة لتوحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين ، وكما فكر نور الدين محمود في هذا فقد فكر أيضاً الصليبيون في مساعدة ضرغام وبالتالي يكون لهم نفوذ في مصر وقوة علي أرضها
- بالتأكيد يا أبي هناك فرق بين تفكير نور الدين محمود ونواياه ، وبين تفكير الصليبيين ونواياهم ،
- نعم يا بني وكان ملك بيت المقدس في ذلك الوقت اسمه الملك "عموري" أو هكذا تم درجه في كتب التاريخ العربي ، وقرر نور الدين محمود إرسال جيش بقيادة أسد الدين

شيركوه إلي مصر بصحبة شاور ، وعلم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلي مصر فأصابه الفزع إذ لم يكن الجيش الفاطمي في ذلك الوقت في حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر ، وأرسل ضرغام رسائل إلي عموري ملك بيت المقدس لينقذه ولكن كان قد فات الأوان فقد قام أسد الدين شيركوه وجيشه بهزيمة ضرغام هزيمة ساحقة انتهت بقتل ضرغام وتفرق أعوانه وتم تعيين شاور وزيراً في مصر في الدولة الفاطمية ، ثم قرر شاور الغدر بأسد الدين شيركوه ورفض إعطاءه ما تم الاتفاق عليه وطلب منه العودة إلي الشام هو وجيشه، فرفض أسد الدين شيركوه وقرر أن يتحصن هو وجيشه في مدينة بلبيس ولم يغادر مصر

- فماذا فعل شاور يا أبي ؟
- ولأن شاور ومن قبله ضرغام كل ما يهمهما هو السلطة ، أرسل شاور إلي ملك الصليبيين عموري لينقذه من جيش أسد الدين شيركوه وبالفعل حضر عموري بنفسه علي رأس جيش قوي إلي مصر ليقف بجوار شاور ضد أسد الدين شيركوه وكان عموري بالطبع علي علم بأن الدولة الإسلامية الموجودة في الشام علي خلاف مع الدولة الموجودة في مصر
- ولذلك لم يكن يعتبر نفسه محاصراً من الشمال والجنوب من دولة إسلامية واحدة قوية يا أبي ، أليس كذلك ؟
- بلي يا بني ، وهكذا اجتمع في مصر جيش إسلامي سني وجيش إسلامي شيعي وجيش صليبي ، وكان ملك الصليبيين يخشي أن يسيطر نور الدين محمود علي مصر فيصبح خطره من الشمال والجنوب ويتم حصار الصليبيين بدولة إسلامية واحدة علي مذهب واحد وتحت قيادة واحدة ، وحاصر عموري بلبيس بمن فيها من جيش أسد الدين شيركوه لمدة ثلاثة أشهر وهنا أيقن نور الدين محمود خطر وجود عموري في مصر وأن جيش أسد الدين ليس بالقوة الكافية لمواجهة الصليبيين في بلبيس ، فقرر أن يجبر ملك الصليبيين علي الانسحاب وذلك بمهاجمة قواته في الشام مما جعل عموري يقلق علي مملكته وهو غائب عنها وقرر أن الأولوية للمملكة وليس لحصار بلبيس ،
- وكان هذا بالطبع تصرف حكيم يا أبي من نور الدين محمود يؤكد أنه قائد علي مستوي عالي من الحنكة ، ويعرف كيف يضغط علي الأعداء ويفتح جبهات أخري للقتال لتخفيف الضغط علي الجبهات الضعيفة ،

- نعم ووصلوا في النهاية إلي حل وسط وقاموا بالاتفاق علي أن ينسحبا معاً وفي وقت واحد من مصر ، وهكذا ترك أسد الدين شيركوه وجيشه مصر وترك أيضاً عموري وجيشه مصر وكان نور الدين محمود يهدف إلي توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين واعتبر أن ضم مصر وسيلة مهمة لتحقيق هذا الهدف وكان مقتنعاً تماماً أن أسد الدين شيركوه كان يقود جيشاً صغيراً قليل العدد والعدة ولا يكفي لإتمام هذه المهمة ولم يكن يتوقع أن يذهب عموري بنفسه إلي مصر علي رأس جيش بهذه القوة ، بل لم يكن يتوقع أن شاور سيستنجد بعدو مشترك لهما ، فأرسل نور الدين محمود القائد أسد الدين شيركوه للمرة الثانية إلي مصر ولكن بجيش أقوي من الجيش السابق خوفاً من عودة الصليبيين إلي مصر ، وللمرة الثانية أيضاً أرسل شاور إلي عموري ليأتي لمحاربة جيش أسد الدين شيركوه وتكرر المشهد ولكن لم يحدث قتال في بلبيس هذه المرة ولكن في المنيا حيث قام أسد الدين شيركوه بهزيمة شاور وعموري وأجبرهما علي الانسحاب إلي القاهرة ثم حدث بعد ذلك اتفاق علي مغادرة الجيشين لمصر ،
- كما حدث في المرة السابقة يا مولاي ؟
- أجل يابني ، ولكن ترك عموري حامية صليبية في القاهرة للدفاع عنها عند الضرورة ، وهكذا استعان الوزير شاور بقوة صليبية علي أسوار القاهرة للدفاع عن مركزه ، وحضر الملك عموري ملك بيت المقدس إلي مصر بجيشه للمرة الثالثة
- ومن دعاه للحضور هذه المرة يا أبي ؟
- لقد حضر هذه المرة يا بني بدون دعوة من شاور ، ولكن لاحتلال مصر ، مما أدي إلي إصابة شاور بالرعب الشديد وأعد العدة للدفاع عن مصر ، وأمر بإخلاء مدينة الفسطاط وإحراقها فظلت النار تعمل فيها وفي منشآتها ومبانيها أربعة وخمسين يوماً وأدرك الخليفة الفاطمي العاضد خطورة الموقف – وكان الخليفة الفاطمي العاضد كمن سبقه من الخلفاء الفاطميين في أواخر عهد الدولة الفاطمية ليس له علاقة بالحكم لسيطرة الوزراء علي مقاليد الحكم ، ولكنه استشعر الخطر وأرسل العاضد بنفسه هذه المرة إلي نور الدين محمود لينقذ مصر من الاحتلال الصليبي ومن التصرفات الحمقاء التي يقوم بها وزيره ، فأسرع نور الدين محمود بإرسال أسد الدين شيركوه بجيش قوي إلي مصر وكانت قوة الجيش هذه المرة كافية لأن يرتد عموري ويعود إلي الشام بعد أن يئس من الاستيلاء علي مصر يأساً تاماً
- وماذا فعل شاور هذه المرة يا أبي ؟

- حاول شاور الغدر بأسد الدين شيركوه وقتله فقد علم أن الخليفة العاضد يثق بأسد الدين شيركوه ومنحه كافة الصلاحيات ، كما أن شيركوه يسيطر علي الأمور ومعه جيش قوي متواجد في مصر للدفاع عنها بناءاً علي طلب الخليفة الفاطمي ، فتم التخلص من شاور وإراحة الناس من شره وغدره وخيانته ، وقام العاضد بتعيين أسد الدين شيركوه وزيراً له فأصبح الخليفة شيعي ووزيره سني موالي للخليفة العباسي في بغداد ولكن سرعان ما مات أسد الدين شيركوه بعد شهرين فقط من توليه الوزارة ، فاختار العاضد لهذا المنصب صلاح الدين الأيوبي الذي كان يصاحب عمه أسد الدين شيركوه عند حضوره إلي مصر وقاتل معه الجيش الصليبي بقيادة عموري ، وكان صلاح الدين يوسف الأيوبي بصحبة عمه أسد الدين شيركوه وأحد قادة جيشه وشهد معه المعارك التي دارت في مصر مع الصليبيين وكان يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي السني ، وقد أصبح صلاح الدين الأيوبي وزيراً للدولة الفاطمية في عهد آخر خليفة فاطمي (العاضد لدين الله) وكما أخبرتك يا بني أن منصب الوزير في ذلك الوقت يعني أنه أصبح الرجل الأول في مصر ولديه جميع الصلاحيات
- سبحان الله ، فقد حدث في مصر عكس ما حدث في بغداد تماماً عند قدوم التتار ، فقد كان الخليفة سني ووزيره شيعي ، فكان المستعصم بالله ومعه ابن العلقمي
- وهكذا ظهر يا بني علي الساحة قائد من أبرز الشخصيات في تاريخ مصر والعالم الإسلامي وهو الناصر صلاح الدين الأيوبي فهنا يتوقف التاريخ ليكتب ويسجل بطولات شخصية بارزة طال انتظار ظهورها لتصل إلي قمة الأحداث ، إنه صلاح الدين يوسف الأيوبي الكردي السني الذي يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي السني ، والذي في الوقت نفسه أصبح وزيراً للدولة الفاطمية في عهد آخر خليفة فاطمي ( العاضد ) ، ولقد واجه صلاح الدين العديد من التحديات والمشاكل في الداخل والخارج قبل أن يستطيع تأسيس الدولة الأيوبية في مصر والعالم الإسلامي ، ولا أريد أن أطيل عليك بذكر تفاصيل ما دار بين صلاح الدين وبين أعداءه في الداخل والخارج ولكن يمكن تلخيص الموضوع ببساطة شديدة في عدة نقاط محددة ، ولكي نعرف الأعداء لابد أن نعرف هدف صلاح الدين أولاً لأن الأعداء بطبيعة الحال هم كل من يريد فشل صلاح الدين في تحقيق هذا الهدف ،
- فماذا كان يريد أن يحققه صلاح الدين وما الفرق بينه وبين نور الدين محمود يا أبي؟

كان خليل يستمع إلي أبيه بإشفاق فقد أخبره الأطباء بأن إطالة الحديث سترهق والده ، ولكنه كان يشعر بأن والده يرتاح كثيراً كلما تكلم عن هذا التاريخ وكأنه يُلقي من علي عاتقه أحمال ثقيلة وهموم كثيرة ليحملها ولده وولي عهده فيشاركه في تحقيق أحلامه ، وكان قلاوون يعرف تاريخ الفاطميين والأيوبيين وحروبهم بل وتاريخ مصر وتاريخ الإسلام والمسلمين وسيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم وجميع غزواته وتاريخ الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين مما تلقاه من المعلمين فقد كان يهتم كثيراً بالتراجم والتواريخ كبعض المماليك ، ولكن تبقي الحروب الصليبية هي أهم وأدق ما يعرفه من تاريخ مصر والأمة فهو يعيشها حتي الآن وتشغل حيز كبير من تفكيره وقد عرف الكثير من المعلومات من أسري معركة المنصورة وخاصة الذين اعتنقوا الإسلام

ويجيب قلاوون علي سؤال ابنه ليعرفه الفرق بين صلاح الدين ونور الدين رحمهما الله فيقول

- لقد أرسل نور الدين إلي صلاح الدين رسالة يطلب منه فيها إلغاء الخلافة الفاطمية وإعادة مصر رسمياً إلي الخلافة العباسية ، ولكن صلاح الدين تردد قليلاً في تنفيذ هذا الطلب وقد كان توحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين يا بني هو هدف كلا الرجلين صلاح الدين ونور الدين ولكن وجهات النظر كانت تختلف في الأسلوب وقاعدة الانطلاق لتحقيق الهدف ، لأن نور الدين محمود كان يري أن الشام هي المكان المناسب لتكون قاعدة انطلاق ضد الصليبيين كوضع طبيعي لكونها ميدان القتال المتلاحم معهم ، أما صلاح الدين فقد اعتبر أن مصر هي القاعدة التي يجب الانطلاق منها لتوحيد الأمة الإسلامية والقضاء علي الحملات الصليبية

ويشرد قلاوون قليلاً ثم يؤكد لابنه صحة وجهة نظر صلاح الدين فمصر لها مكانة خاصة في قلبه لأنه نظر إليها النظرة التي هي جديرة بها ، وقدَّر لها قدرها وعرف إمكانياتها وثقلها وفضلها ويستطرد فيقول :

- كما أن صلاح الدين لا يريد القوة فقط لتحقيق الأهداف بل كان يعتبر الحكمة والتروي لا بد أن يسيران جنباً إلي جنب بجوار القوة فرأي أن الأمة قد تعددت فيها المذاهب وانحرف الكثيرون عن أصل العقيدة الإسلامية وابتعدوا عن كتاب الله وسنة نبيه صلي الله عليه وسلم ، فوجد أن أفضل اسلوب هو إعادة المذهب السني وتقويته في مصر واليمن وغيرها من بلاد الأمة لتمضي وتسير علي منهج الله وبالتالي تستحق نصر الله
- فماذا كان موقف نور الدين محمود رحمه الله ؟
- أصر نور الدين محمود علي أوامره لصلاح الدين بالغاء الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضئ دون أي مقدمات أو تمهيد ولم يستطع

صلاح الدين مخالفة أوامر نور الدين محمود رغم إحساسه بمدي خطورة إلغاء الخلافة الفاطمية بهذا الأسلوب المفاجئ بل كان يري أن نشر المذهب السني أولاً في مصر والدعوة إليه وتقويته هو السبيل إلي سقوط الخلافة الفاطمية بهدوء وبدون مشاكل من أي نوع بل وعن قناعة وليس قهراً ،

**قلاوون يحدث ابنه عن الناصر صلاح الدين**

- إذن فقد قام صلاح الدين بتنفيذ أوامر نور الدين محمود وألغي الأذان الشيعي وأعاد الأذان السني ودعا للخليفة العباسي المستضئ بأمر الله علي المنابر
- أجل يا بني ، ولكنه في نفس الوقت أنشأ مدرسة علي المذهب الشافعي وعين قضاة شافعيين في كافة الأنحاء والطريف أن هذه الإجراءات لم تتناطح عند حدوثها شاتان كما يقال بل إن المصريين المسلمين فرحوا بعودة المذهب السني الذي لم يخرجوا منه أساساً ، وكان الخليفة العاضد مريضاً مرضاً شديداً حتي قيل أنه مات دون أن يعرف بإلغاء الخلافة الشيعية في مصر ولم يخبره أحد بذلك ، ويموت أيضاً نور الدين محمود ويخلفه ابنه الذي لا يتعدي عمره (11) سنة وأصبح هذا الطفل مطمعاً للقادة والأمراء الذين حوله (- ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمل هؤلاء الأمراء علي مصالحة الصليبيين في بيت المقدس في ذلك الوقت العصيب الذي تمر به الأمة الإسلامية الأمر الذي أثار سخط صلاح الدين -) وهنا شعر صلاح الدين أن من واجبه أن يكمل ما بدأه نور الدين محمود لأنه لم يجد فيما يبدو أحد يريد استكمال مسيرة جهاد نور الدين رحمه الله بل علي العكس من ذلك فقد وجد بعض الأمراء يريدون وضع أيديهم في أيدي الصليبيين
- لقد كثر إذن أعداء صلاح الدين
- بالتأكيد يا بني فمن هنا يتضح أن المخاطر التي واجهت صلاح الدين كانت تتمثل في العديد من المؤامرات الداخلية والخارجية وكانت هناك عدة محاولات لقتله غدراً في مقره ، وكانت المؤامرات الداخلية تتمثل في قيام بقايا الفاطميين بعد وفاة العاضد بالاتصال بملك صقلية وملوك الفرنجة وطلبوا منهم الاتحاد في مواجهة صلاح الدين والقضاء عليه (- فظهر في ذي الحجة 569هـ " يوليو 1174م" أسطول ضخم أمام الإسكندرية أرسله وليم الثاني النورماني ملك صقلية وحاصر المدينة كما دمر بعض السفن التجارية الراسية في الميناء ، غير أن شجاعة الجيش الأيوبي ومقاومة أهل الإسكندرية الباسلة خيبت آمال وليم الثاني وحملت أسطوله علي أن يقلع من الإسكندرية في مستهل أغسطس من نفس العام -) ، كما حاول أيضاً الفاطميون

إعادة الدولة الفاطمية وباءت المحاولة بالفشل حيث أرسل صلاح الدين أخاه " العادل " لمحاربتهم وهزمهم بالفعل ، وغاية ما يمكن أن يقال عن أعداء صلاح الدين أنهم كل من لا يريد عودة الأمة إلي وحدتها ويفضل تمزقها وخضوعها لأمم أخري

- فمن كان الخليفة العباسي أثناء ذلك يا أبي ؟
- كان الخليفة العباسي أمير المؤمنين المستضئ بأمر الله الذي في عهده تم عودة مصر إلي الخلافة العباسية فعندما تولي الخلافة (- قال المؤرخون : فنادي برفع المكوس ورد المظالم وأظهر العدل والكرم ما لم نره في أعمارنا وفرق مالاً عظيماً علي الهاشميين والعلويين والعلماء والمدارس والربط ، وكان دائم البذل للمال ، ليس له عنده وقع ، ذا حلم وأناة ورأفة -) ، (- وفي خلافته انقضت دولة بني عبيد المعروفة بالفاطمية ، وخطب له بمصر وضربت السكة باسمه وجاء البشير بذلك فعلقت الأسواق ببغداد وعملت القباب - - وقال المؤرخون عنه أيضاً : في أيامه ضعف الرفض ببغداد ووهي ، وأمن الناس ورزق سعادة عظيمة في خلافته وخطب له باليمن وبرقة وتوزر ومصر إلي أسوان ودانت الملوك بطاعته ، وقال العماد الكاتب : استفتح السلطان صلاح الدين بن أيوب سنة سبع بجامع مصر كل طاعة وسمع وهو إقامة الخطبة في الجمعة الأولي منها بمصر لبني العباس ، وعفت البدعة وصفت الشرعة وأقيمت الخطبة العباسية في الجمعة الثانية بالقاهرة وأعقب ذلك موت العاضد في يوم عاشوراء -)
- وبهذا عادت مصر إلي المذهب السني وإلي الخلافة العباسية يا أبي ؟
- نعم يا بني ، وقرر صلاح الدين بناء سور حول القاهرة وباقي العواصم الإسلامية الأخري السابقة لها كالفسطاط والقطائع وقد أصبحوا كما لو كانوا مدينة واحدة كبري لها سور كبير ليس مقتصر علي القاهرة الفاطمية كما شرع في بناء قلعته التي نتواجد بها الآن ، ولكنه مات قبل أن يتم بناءها بالكامل
- وكيف قام صلاح الدين بتوحيد الأمة تحت قيادته يا أبي ؟
- استطاع صلاح الدين أن يقضي علي جميع المؤامرات الداخلية في مصر بفضل الله آخذاً بأسباب القوة وكان ينجوا بأعجوبة من محاولات قتله غدراً وبعد أن استقرت له مصر تماماً قرر أن يخوض حرباً ضد كل من تحالف مع الصليبيين في الشام وتوحيد الأمة الإسلامية وكان بالطبع يجد مقاومة شرسة أحياناً ولا يجد مقاومة تذكر أحياناً أخري وبعد عدة معارك استطاع صلاح الدين فرض سيطرته وأمسك بزمام الأمة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية ووجد أن الوقت قد حان لمواجهة الصليبيين

وكسر شوكتهم ، وليس معني هذا أن صلاح الدين لم يحاربهم طوال تلك الفترة بل إنه اكتفي بحروب دفاعية صغيرة حتى يتمكن من توحيد الجبهة الإسلامية أولاً ، ثم التفرغ التام لهم ووراءه أمة قوية آخذه بأسباب القوة والعلم وفوق كل هذا قوية بعقيدتها السليمة الخالية من البدع والخرافات ، وكان حول صلاح الدين رجال أشداء وأعوان مخلصين من بينهم بالطبع أخوته مثل العادل وتورانشاه وكذلك رجل آخر قوي اسمه الأمير بهاء الدين قراقوش الذي أشرف علي بناء السور الذي أمر ببناءه صلاح الدين ، وكان قراقوش هذا رجلاً مهاباً يُضرب بحسمه المثل إلي الآن ، وبالإضافة إلي كل هؤلاء كان هناك أهل الذمة من اليهود والمسيحيين الذين كانوا ينعمون بالحكم العادل والبيئة الخصبة لممارسة شعائر دينهم فالدين الإسلامي هو الدين الذي لا ينكر الأديان السماوية الأخري والذي في ظله يمكن أن تنعم باقي الأديان بمقدساتها وخصوصيتها

- فهل أطمع يا أبي أن تحدثني عن انتصارات الناصر صلاح الدين ؟
- يسعدني ذلك يا بني فقد توالت انتصارات صلاح الدين علي الصليبيين في سرعة مذهلة بحيث لم يعد الصليبيون يلاحقون تحركاته ، ونتيجة للضربات المتلاحقة التي كالها صلاح الدين للصليبيين طلب بلدوين الرابع وكبار باروناته الصلح من صلاح الدين في مايو 1180م فوافق وعقد معهم هدنة مدتها سنتين ، ولكن كان هناك شخص متطرف جداً اسمه " ريجنالد شايتون " صاحب حصن الكرك ومشهور باسم " أرناط " في كتب التاريخ العربي ، قام أرناط بنقض الصلح بل حاول إرسال أسطول وجيش قوي لاحتلال الحرمين الشريفين
- الحرمين الشريفين ؟!!
- نعم يا بني ، ولا شك أن وصول تلك الحملة الصليبية الجريئة إلي شواطئ الحجاز توضح لك مدي الخطورة التي كانت تهدد المسلمين في أعظم مقدساتهم ، ولكن يقظة الدولة الأيوبية في تلك المرحلة من تاريخها ردت اعتداء الغزاة الصليبيين إلي نحورهم فلم ينالوا مغنماً مما أرادوه ، وبالرغم من الهدنة التي احترمها صلاح الدين مع الصليبيين إلا أن أرناط ، انقض علي قافلة كبيرة قادمة من مصر إلي دمشق وقتل الجند المكلفين بحراسة القافلة وحمل التجار أسري إلي حصنه ، ولما وصل خبر ما حدث للقافلة إلي صلاح الدين أرسل إلي أرناط يطلب إطلاق سراح الأسري ورد ما نهبه فامتنع ورد علي رسل صلاح الدين قائلاً " قولوا لمحمد يخلصكم " ورفض تسليم الأسري ، وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب فأعلن الجهاد ، وخرج علي رأس

جيوشه وهزم الصليبيين في معركة شرسة بالقرب من " صفورية " وسقط معظم الجيش الصليبي بين أسري وقتلي ثم قام بمهاجمة مدينة طبرية ولم يلبث أن استولي علي المدينة في يوليو سنة 1187 م ، ثم وقعت معركة حطين الشهيرة الحاسمة التي هزم فيها صلاح الدين الصليبيين هزيمة ساحقة ووقع في الأسر ملك بيت المقدس بلدوين الرابع وأرناط صاحب الكرك الذي حاول من قبل غزو الكعبة ، ويذكر التاريخ عن هذه الواقعة أن صلاح الدين عامل الأسري معاملة طيبة

- حتي ذلك الأرناط يا أبي ؟
- لا يا بني ، فيما عدا أرناط الذي قتله صلاح الدين بسيفه جزاء له علي غدره ومكره لأنه تجاوز الحد وتجرأ علي الأنبياء ، واضطر الصليبيون إلي عقد معاهدة تقضي بإخلاء بيت المقدس من الصليبيين بدون إراقة دماء ووافق صلاح الدين علي أن يسمح لهم بالخروج سالمين وتم تسليم المدينة في 27 رجب سنة583 هـ "2أكتوبر 1187م" ، ولا شك أن ما فعله صلاح الدين جاء متناقضاً تماماً لما فعله الصليبيين عندما استولوا علي بيت المقدس سنة 491 هـ "1097م" حيث قتلوا به أكثر من سبعين ألفاً ، وقد ظل بيت المقدس في أيديهم حوالي 90 سنة
- وبالطبع يا مولاي غضب ملوك أوروبا غضباً شديداً بسبب هزيمة الصليبيين في فلسطين أمام صلاح الدين ، وخاصة موقف تحرير بيت المقدس ؟
- نعم يا بني ، فقام ثلاثة من ملوك أوروبا الأقوياء بتزعم حملة ضخمة لإعادة احتلال بيت المقدس وهم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا حيث قاموا بقيادة حملة صليبية جديدة معروفة بالحملة الصليبية الثالثة واستطاعوا احتلال عكا لتكون قاعدة القتال ضد المسلمين وقتلوا حوالي ثلاثة آلاف أسير مسلم
- وبماذا قامت هذه الحملة الضخمة يا أبي ؟
- أوقع المولي عز وجل الخلاف بين قادة هذه الحملة وانتهي الأمر إلي قيام ريتشارد قلب الأسد فقط بقيادة الحملة بعد مغادرة باقي القادة نتيجة للاختلافات واستمر ريتشارد يقاتل المسلمين ولكن لم يصل إلي نتيجة مرضية بل إنه قرر أن يدخل في معاهدة صلح مع صلاح الدين بعد أن تأكد أن صلاح الدين لا يرفض حضور المسيحيين للحج في أي وقت إلي بيت المقدس كما أن صلاح الدين كان حريصاً علي مقدسات جميع الأديان وليس فقط المقدسات الإسلامية ، فعاد ريتشارد إلي بلاده مطمئناً في 9 أكتوبر سنة 1192م

- ومتي مات صلاح الدين يا أبي ؟
- مات صلاح الدين الأيوبي يا بني في 27 صفر سنة 589 هـ " أوائل مارس سنة 1193م" ، مخلفاً وراءه دولة متحدة الأركان ، وقد قال أحد المؤرخون عن صلاح الدين : " فرحمة الله عليه في سائر الأوقات فلقد كان إماماً عادلاً وسلطاناً كاملاً لم يل مصر بعد الصحابة مثله لا قبله ولا بعده ، كما رثاه أسامة بن منقذ في قصيدة ومما قال فيها

ملك يمن علي أساري سبيه - - - فيعيدهم في الأسر بالإحسان
ملأ القلوب محبة ومهابة - - - فخلت من البغضاء والشنآن
يا ناصر الإسلام حين تخاذلت - - - عنه الملوك ومظهر الإيمان
بك قد أعز الله حزب جنوده - - - وأذل حزب الكفر والطغيان
لما رأيت الناس قد أغواهم - - - الشيطان بالإلحاد والعصيان
جردت سيفك في العدا لا رغبة - - - في الملك بل في طاعة الرحمن
وغضبت لله الذي أعطاك فضل - - - الحكم غضبة ثائر حران

كما رثاه العماد الأصبهاني في كتابه " البرق الشامي " بقصيدة يبلغ عدد أبياتها مائتين واثنين وثلاثين بيتاً جاء فيها :

بالله أين الناصر الملك الذي - - - لله خالصة صفت نياته
أين الذي مازال سلطانا لنا - - - يُرجي نداه وتُتقي سطواته
لا تحسبوه ممات شخص واحد - - - فممات كل العالمين مماته
دفن السماح فليس ينبش بعدما - - - أودي إلي يوم النشور رفاته
من لليتامي والأرامل راحم - - - متعطف مفضوضة صدفاته
فمن أيضاً من ملوك الدولة الأيوبية يمكننا الحديث عنه ؟

## الملك الكامل ومعاهدة سلام في العصر الأيوبي :

- فماذا حدث بعد ذلك يا أبي ؟
- لقد حدثت معاهدة سلام عجيبة ونادرة بين الدولة الأيوبية وبعض الصليبيين يا بني
- ومتي حدثت هذه المعاهدة يا أبي وماذا كانت بنودها ؟
- عندما وصل للحكم في الدولة الأيوبية الملك الكامل يا بني ، فقد كان محباً للسلام وكان الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك الصقليتين محباً للسلام أيضاً وقررا العيش في سلام ، وكان كلاً منهما لا يلجأ إلي السيف إذا استطاع أن يحل مشكلاته بالسياسة والطرق السلمية ، وقد أحسن " كانتوروفتر "

مؤرخ فردريك الثاني في وصف الرجلين حين قال : كان الملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور إن لم يكن أقرب إلي الصحة أن نقول إن الإمبراطور كان صورة غربية من السلطان الملك الكامل

- ألم تصل إلي الشام أي حملات صليبية في عهده يا أبي ؟
- لقد حدثت الحملة الغريبة والتي لا مثيل لها وهي الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها الإمبراطور فردريك الثاني وكانت تتكون من ستمائة فارس فقط
- ستمائة فارس فقط ؟!!
- نعم يا بني فقد كانت حملة سلمية ورمزية وكان الغرض منها تنفيذ معاهدة السلام التي تمت بين فردريك الثاني والملك الكامل وكانت بنودها ( 1 ) أن تسلم بيت المقدس للإمبراطور باعتبارها ملك الدولة الصليبية بشرط ألا يقيم فيها حصوناً أو قلاعاً ( 2 ) أن يعطي للصليبيين بيت لحم والناصرة وطريق الحاج من بيت المقدس إلي يافا علي الساحل ( 3 ) أن يبقي في أيدي المسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى علي ألا يحمل المسلمون في تلك المنطقة سلاحاً ( 4 ) أن يطلق الكامل سراح من عنده من الأسري ( 5 ) أن يتعهد فردريك بمحالفة الكامل ضد جميع أعدائه حتي ولو كانوا مسيحيين صليبيين ( 6 ) أن يضمن الإمبراطور عدم وصول إمدادات صليبية إلي الإمارتين الصليبيتين في إنطاكية وطرابلس ( 7 ) أن تسري هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات
- وماذا كان صدي توقيع هذه المعاهدة علي الناس يا أبي ؟
- بالطبع غضب بعض المسلمون من الملك الكامل لتوقيعه هذه المعاهدة التي تسمح للصليبيين بالتواجد في بيت المقدس ولو كمملكة رمزية دون قوة تحميها كما سخط أيضاً المسيحيون علي فردريك لأنه سالم المسلمين دون قتال وظل الطرفين ينعمون بالسلام والأمن لفترة من الوقت استطاع فيها الملك الكامل أن يحقق رغبة الصليبيين في تكوين مملكتهم المحببة في بيت المقدس ولكن منزوعة السلاح مع سيطرة المسلمين علي كل مقدساتهم الإسلامية في المنطقة سيطرة كاملة مع السماح للحجاج المسيحيين بالتوجه بحرية إلي أماكنهم المقدسة
- فماذا حدث بعد ذلك يا أبي ؟
- عندما تولي الملك الصالح حكم مصر قام باستعادة بيت المقدس سنة 1244 م وقد تزامن ذلك مع وصول إحدى الحملات الصليبية الصغرى إلي الشام وأدى استعادة بيت المقدس مرة أخري في أيدي المسلمين إلي قيام حرب صليبية جديدة قوية بقيادة

لويس التاسع ملك فرنسا وهي الحملة التي شاركت في مقاومتها بنفسي وشاهدتها بعيني يا بني ولم يعلمها لي أحد من المعلمين ، والعجيب يا بني أن هذه الحملة كانت ضد المسلمين وضد فردريك الثاني في نفس الوقت أي أنهما كانتا حملتان واحدة ضد المسلمين والثانية ضد الصليبيين المتحالفين مع المسلمين باعتبارهم خارجين علي الكنيسة ، ولعل ذلك كان عاملاً من أهم العوامل التي أدت إلي توثيق الصداقة بين فردريك الثاني والملك الصالح نجم الدين فأرسل فردريك في السر رسولاً يحمل إلي الصالح أنباء خروج حملة لويس في طريقها إلي مصر وكان من الطبيعي أن تبدأ الحملة بقتال الدولة الأيوبية في مصر لأنه لا يمكن الوصول إلي بيت المقدس إلا إذا سقطت الدولة الأيوبية في مصر أولاً فيصبح بذلك الطريق سهلاً إلي تحقيق الهدف الرئيس من الحملة وهكذا يا بني قد وصلنا للحديث عن الملك الصالح والملك لويس التاسع ومعركة المنصورة التي حدثتك عنها كثيراً من قبل

## قلاوون يلخص لابنه العصر الأيوبي بالكامل

لقد كان قلاوون في قمة السعادة وهو يتحدث إلي ابنه خليل وكانت تزداد سعادته عندما يستفسر منه عن بعض الأمور أثناء الحديث فهذا ينم عن اهتمام بالغ ، لذلك لم يبخل عليه بأي معلومة يريد معرفتها ، وفي نهاية حديثه قام بتلخيص تاريخ الأيوبيين قائلاً :

- أريد منك أن تحفظ تاريخ الأيوبيين عن ظهر قلب يا بني ولذلك سأكرر لك أسماء سلاطين هذه الدولة العظيمة كي أطمئن فأول من تولي الحكم من الأسرة الأيوبية بالطبع يا بني هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلي أن توفي سنة 1192 م ثم تولي حكم مصر بعده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين إلي أن توفي سنة 1198 م ثم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن العزيز بن صلاح الدين وكان صغير السن وعمره تسع سنوات مما أدي إلي سيطرة عمه الملك الأفضل علي بن صلاح الدين الأيوبي إلي أن تم حسم الموقف تماماً وتولي الملك العادل سيف الدين أبو بكر من سنة 1200 م إلي سنة 1218 م وهو أخو صلاح الدين وتولي الحكم لمدة 19 سنة ثم جاء بعده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل إلي أن توفي سنة 1238 م وكان أول من سكن القلعة التي شرع في بناءها صلاح الدين وجاء بعده ابنه الملك سيف الدين أبو بكر ثم توفي سنة 1240 م ثم جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لمدة تسع سنوات وتوفي في المنصورة سنة 1249 م وجاء بعده الملك المعظم توران شاه ابنه الذي تولي حكم مصر لمدة شهرين فقط إلي أن تم قتله ثم تولت الحكم عصمة الدين أم خليل شجرة

الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين ولم تستمر في الحكم أكثر من ثمانين يوماً وبهذا انتهت الدولة الأيوبية وأشهر ملوك بني أيوب يا بني هم الملك الناصر والملك العادل والملك الكامل والملك الصالح ، وكان الصليبيون كما أخبرتك هم قدر هذه الدولة منذ نشأتها وحتي آخر يوم في تاريخها فقد كان الأيوبيون في جهاد مستمر مع الصليبيين ويواجهون الحملات الصليبية المختلفة الواحدة تلو الأخري

- لقد فهمت الآن يا أبي تماماً مشاعرك نحو الجهاد وعرفت تاريخ الأيوبيين مع الحملات الصليبية ، وسوف أسير خلفك لتحرير باقي الشام إن شاء الله
- حسناً يا بني لقد جعلتني أشعر بالراحة والسكينة بحديثك ولنستعد غداً إن شاء الله للسفر إلي عكا ، ولكن عدني يا بني أن تستكمل أنت هذه الرحلة إن لم أتمكن أنا من استكمالها
- لا تقلق يا أبي فما تحلم به أحلم به معك

وفي اليوم التالي مات الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي قبل أن يتمكن من السفر للجهاد ولكن لم تمت أحلام قلاوون

## وفاة السلطان قلاوون

كان السلطان قلاوون يرجو أن ينال شرف إنهاء الوجود الصليبي، فاستعدَّ لذلك، لكنَّ القدر لم يُمهله، فتُوُفِّيَ السلطان قلاوون بقلعة الجبل بالقاهرة في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة 689 هـ- 11 من نوفمبر 1290م، وفيها غُسِّل وكُفِّن، ثم حُمل إلى تربته الملحقة بمدرسته العظيمة بين القصرين (بشارع المعز) فدُفن فيها، ولا تزال المدرسة شامخة شاهدة على عظمة هذا السلطان وازدهار عهده.

خلف السلطان المنصور ولده السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، الذي استكمل رحلة الجهاد، وفتح فتوحًا عظيمة؛ كان أهمّها فتحه لعكا، ومن بعده أخوه الناصر محمد بن قلاوون، وظلَّ الحكم في ولد قلاوون نحو قرنٍ من الزمان

## كيف تحقق حلم فتح عكا ؟

عندما تولي الملك الأشرف خليل بن قلاوون المسئولية دعا للجهاد ضد الصليبيين في جميع البلاد الإسلامية . وفي القاهرة أقام السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون احتفالاً دينياً في القبة المنصورية دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان وحضرته طوائف الشعب ، وضج المجتمعون بالدعاء إلي الله أن يكتب النصر للسلطان ثم خرج خليل بجيشه من القاهرة

**واجتمعت هذه الجحافل من كل مكان عند أبواب عكا في ربيع سنة 1291 م ، واشتد الحصار ودام ثلاثة وأربعين يوماً ، وسقطت عكا في أيدي المسلمين بعد أن لبثت في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة وسرعان ما تساقطت المدن الصليبية القليلة الباقية كما تتساقط أوراق الشجر ، وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبي وطُرِد من عكا آخر جندي صليبي بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير بدأه عماد الدين زنكي وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير : نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وبيبرس وقلاوون ثم كان التطهير علي يد الأشرف خليل بن قلاوون لتتحقق أحلام قلاوون ولكن بعد وفاته**